إعداد الرسول ﷺ لتحمل الرسالة

فى

القرآن الكريم والسنة النبوية

دكتورة

عفاف على النجار

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات

جامعة الأزهر

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

الناشر

مكتبة ومطبعة الغد

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك * فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا * فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب * ﴾ [2]

---

[1] سورة الضحى الآيات ١- ١١ .

[2] سورة الشرح الآيات ١ ـ ٨ .

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن اهتدى بهديه وعمل بشريعته إلى يوم الدين .

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ [١] .

أما بعد ..

فإن الإتصال بعالم الغيب يحتاج لأهلية خاصة واستعداد عظيم، ولم يعط كل إنسان مثل هذا **﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾** [٢] إذ أن حكمة الله اقتضت ألا تجعل الناس درجة واحدة إذ لا تستقيم الحياة البشرية بذلك . فمن للمهن ، ومن للحرف ، ومن لقضاء حاجات الناس ، ومن للخدمة ، ومن للسيادة ، ومن للتبعية قال تعالى : **﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ﴾** [٣] وكانسجام مع هذا القانون العام جرت سنة الله أن يختار إنساناً رسولاً ليبتلى الآخرين به .

---

[١] سورة المائدة الآيتان ١٥، ١٦ .

[٢] سورة الأنعام آية ١٢٤ .

[٣] سورة الزخرف آية ٣٢ .

ومن أهم ما أُمتُحن به الإنسان تكليفه بالإيمان بالغيب الذى قلم على صدق المخبر به ، وهذا لا يتم إلا إذا كان بين الله وخلقه واسطه هم الرسل .

وهؤلاء الرسل يمثلون ذروة الكمال البشرى لأنهم يمثلون ذروة العبودية لله تعالى ، ويقومون بأضخم مهمة فى الوجود وهى مهمة إرشاد الإنسان إلى الطريق الصحيح . قال تعالي : **﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾** [1] .

ولما كانت رسالته ﷺ هى الخاتمة للرسالات ، والعامة للإنس والجن مجتمعين ، كان إعداد الله تعالى له ، وعنايته به ، وحسن رعايته له ، للقيام بأعباء الرسالة ومسئولياتها ، ولتتخرج به خير أمة أخرجت للناس **﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾** [2].

ولقد ذكر الله تعالى فى ثنايا القرآن الكريم آيات فيها إعداد وتهيئة للنبى ﷺ لتحمل مسئولية الرسالة .

وكان سبب اختيارى لهذا البحث :

أولاً : التعرف على الأقدار التى نُسجت فى عالم الغيب من أجل الحفاظ عليه ﷺ من قبل مولده إلى أن ولد .

---

[1] سورة البقرة آية ١٥١ .

[2] سورة آل عمران ١١٠ .

وبيان مدى رعاية الله تعالى وفضله علـــى نبيــه ﷺ منــذ صغره حتى مبعثه وما بعد البعثة :

ثانياً : التعرف على أهم الصفات التى اتصف بها النبى ﷺ وكيف نستفيد من معرفتها والتأسى به عليه الصلاة والسلام .

ثالثاً : التعرف على دور الدعاة ومدى اســـتفادتهم مــن الدعــوة المحمدية .

منهجي فى هذا البحث :

قسمت هذا البحث إلى تمهيد وسبعة فصول :

أما التمهيد :

فقد تناولت فيه : عناية الله تعالى بنبيه ﷺ قبل مولده وذلـــك بإفتداء والده من الذبح .

- راحة أمه فى حمله .
- حفظ نسبه وتنقله من أصلاب زكيه إلى أرحام طاهرة من لـــدن آدم حتى انتهى إلى أبيه وأمه .
- بركته ﷺ وهو جنين ، بهلاك أصحاب الفيل .

الفصل الأول : وعنوانه : إعداده ﷺ بعد مولده وحاجة العالم إلى بعثته .

الفصل الثانى : البشارة بالنبى ﷺ فى الكتب السماوية وشـــهادة بعض من كان لهم علم بالكتب السماوية بأنه النبـــى المنتظر .

أما الفصل الثالث: فعنونت له بـــ إعداده ﷺ قبيل النبوة .

ثم الفصل الرابع : وعنوانه : إعداده ﷺ بعد البعثه لتحمل أعبــاء الرسالة .

الفصل الخامس : العبادات وأثرها فى إعداد النفس وتزكيتها .

أما الفصل السادس فعنوانه:الذكر وفضلـــه فــى إعـــداد الدعـــوة المحمدية

ثم الفصل الأخير وعنوانه : إعداد الدعاة لحماية الإسلام .

وقمت بتقسيم الفصول إلى مباحث ونقاط حسبما تقتضيه أحوال البحث .

هذا وقد استعنت فى بحثى هذا بأمهات كتب التفسير والحديث والسيرة النبوية .

أسأل الله العلى القدير أن يجعل هذا العمل فى ميزان حســـناتنا وأن يجعله حجة لنا لا علينا .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

د. عفاف على النجار

تمهيد

إن القيادة والرئاسة تتطلب مواصفات خاصة فى الشخص الذى يحكم قبيلة ما أو دولة كى يشعر الجميع بالأمن والأمان .

ولكن ما بالنا إذا كان هذا الإنسان يقود شعوباً وأمماً مختلفة الطباع والتقاليد واللغات ويعبدون الأصنام ويشركون بالله تعالى إذن لا بد أن يعد إعداداً خاصاً كى يتحمل الرسالة التى كلف من أجلها .

ولما كانت رسالته ﷺ هى الخاتمة للرسالات ، والعامة للإنس والجن مجتمعين ، كان إعداد الله تعالى له ، وعنايته به ، وحسن رعايته له لتحمل هذه الرسالة ، والقيام بأعبائها ومسئولياتها، ولتتخرج به خير أمة أخرجت للناس ، الأمة التى تحرس عقيدة التوحيد ، وتحمى الإسلام ، وتدعو للسلام ، وتحفظ للبشرية كل أمن وخير ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ [١] .

لذا كان سيدنا محمد ﷺ مغموراً برعاية وعناية وإعداد خاص من قبل أن يولد منذ افتداء والده من الذبح بعد أن عزم عبد المطلب على ذبحه وفاء لنذره — وكان عبد المطلب قد نذر حين لقى من قريش ما لقى عند حفر بئر زمزم . لئن ولد له عشرة نفر-

---

[١] سورة آل عمران آية ١٠ .

فوقع الذبح على عبد الله حتى افتدى بمائة من الإبل .

" **قال ابن إسحاق** : ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد عبد الله، فمر به – فيما يزعمون – على إمرأة من بنـــى أســـد بـــن عبـــد العزى بن قصى بن كلاب ، وهى اخت ورقة بن نوفل بن أسد بـــن عبد العزى ، وهى عند الكعبة ، فقالت له حين نظرت إلى وجهـــه : أين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع أبى ، قالت : لك مثل الإبل التـــى نحرت عنك وقَعْ علىَّ الآن ، قال أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه .

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد منـــاف بـــن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، وهـــو يومئذ سيد بنى زهرة نسباً وشرفاً ، فزوجه ابنته آمنه بنت وهـــب ، وهى يومئذ أفضل إمرأة فى قريش نسباً وموضعاً ، فحملت برسول الله ﷺ ، ثم خرج من عندها ، فأتى المرأة التى عرضت عليـــه فأعرضت ، فقال لها : مالك لا تعرضين علىَّ اليـــوم مـــا كنـــت عرضت علىَّ بالأمس ؟ فقالت له : فارقك النور الذى كـــان معـــك بالأمس فليس لى بك اليوم حاجة . وقد كانت تسمع من أخيها ورقـــة ابن نوفل وكان قد تنصر واتبع الكتب : أنه سيكون فى هذه الأمـــة نبى "[1] .

ولعل افتداء عبد الله لأنه كان يحمل معه أمانة كبرى لا بد أن

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام ١/١٦٤ ـ ١٦٥ باختصار .

يؤديها ، وهى نطفة النبى ﷺ فلما أداها استوفى أجله .

أيضاً من الدلائل على حسن رعاية الله له راحة أمه فى حمله ﷺ وبشراها به وتعليمها أن تفيده بالله من شر كل حاسد.

لما حملت آمنه بنت وهب بالنبى ﷺ كانت تقول : ما شعرت أنى حملت به ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء إلا أنى قد أنكرت رفع حيضتى ، وربما كانت ترفعنى وتعود ، فأتانى آت وأنا بين النائم واليقظان فقال : هل شعرت أنك حملت ؟ فكأنى أقول ما أدرى — فقال : أنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك يوم الأثنين — فقالت : فكان ذلك مما أيقن عندى الحمل [1] .

ويروى أن آمنة : كانت تحدث أنها أُتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى : أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، ثم سميه محمداً . ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى ، من أرض الشام [2] .

أخرج أحمد والبزار والطبرانى والحاكم والبيهقى .. عن العرباض بن سارية أن رسول الله ﷺ قال : إنى عبد الله وخاتم النبيين وأن آدم لمنجدل فى طينته وسأخبركم عن ذلك دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات

---

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد ٩٨/١ .

[2] سيرة ابن هشام ١٦٦/١ .

النبيين يرين ، وأن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعتـــه نـــوراً أضاءت له قصور الشام [١] .

ولعل ما ذكرته السيدة آمنة " أنها رأت حين حملت بــــه أنــه خرج منها نور .. " هى رؤيا نوم وقعت فى الحمل ، وأما ما رأتــه ليلة الولادة فرأت ذلك رؤية عين .

ولا شك أن النسب الشريف الزكى شرط من شـــروط النبــوة وعلامة من علاماتها ، لهذا كان فضل الله على نبيه عظيماً إذ حفظ له نسبه وطهره واصطفاه فلم يزل ينتقل ﷺ من أصلاب زكية إلى أرحام طاهرة ، من لدن آدم حتى انتهى إلى أبيه وأمــه ، واتصــل نسبه الشريف بشجرة طيبة هى شجرة إبراهيم وإسماعيل عليـــهما السلام .

ولقد تحدث النبى ﷺ عن طهارة نسبه وطيب أصله فقـــال : " إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفـــى مـــن ولـــد إسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشاً واصطفى مــــن قريش بنى هاشم واصطفانى من بن هاشم " [٢] .

---

[١] الخصائص الكبرى للسيوطى ٧٨/١ . دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

[٢] الشفا فى حقوق المصطفى للقاضى عياض ص ٨٢ وأخرجه الترمذي فـــى ســـننه . كتاب المناقب . باب : فى فضل النبى ﷺ ٥٨٣/٥ . قال أبو عيسى : هذا حديـــث حسن صحيح .

وأخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الفضائل . باب تفضيل نبينا محمـــد ﷺ علـــى جميع الخلائق ٣٦/١٥ بنحوه . شرح النووى .

وروى عن العباسى بن عبد المطلب قال : قلت : يا رسول الله إن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم ، فجعلوا مثلك كمثل نخلة فى كبوة من الأرض ، فقال النبى ﷺ : إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم : من خير فرقهم وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل فجعلنى من خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلنى من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً [1].

ومع أن طهارة النسب وعراقة الأصل لها أثرها الواضح فى حياة العظماء ونجاح الرسالات . إلا أنها وحدها لا تكفى فى صنع الرجل العظيم ، بل لا بد من رعاية الله وفضله .

ولذلك لما عصى ابن نوح أباه وامتنع عن ركوب السفينة لم ينفعه نسبه بشئ وكان من المغرقين .

بركته ﷺ وهو جنين :

إن أحداث هذا الوجود تسير على مقتضى ناموس كونى ثابت عند رب العالمين قد أراده الله تعالى بحكمته وتخيره بإرادته ، وأقامه بقدرته ، وليس للمصادفة حكم عند الله ، وإنما حكمها لا يتجاوز ما عند الناس ، لأنهم يربطون الأسباب بالمسببات بحكم العادة ، ويطبقون عليها تظام قانونهم المحسوس المعلوم ، فإذا خالفه قالوا إنه مصادفة ، وهذا نظر الذين يدركون الماديات ، ولا

---

[1] أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب : المناقب . باب : فى فضل النبى ﷺ ٥/٥٨٤ ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

يدركون ما وراءها ، ويحسون بالمحسوسات ، ولا يحكمون بأن ثمة سلطاناً قاهراً لخالق الأسباب والمسببات ، وأنها لا تقيد إرادته ، بل هو الذى يقدرها بحكمته .

وقد صرح سبحانه بأن أهل القرى لو آمنوا واتقوا لأنزل لهم الرزق مدرارا فقال تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾ [1] .

كما صرح سبحانه بأنه أنزل الرجز على الذين ظلموا من آل فرعون ، وقد ربط الله تعالى ذلك بعصيانهم ، فقال جل شأنه:﴿**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون** ﴾ [2] .

فهذه النصوص تدلنا دلالة قاطعة على أن الله ينزل البركات لمن استقاموا على الطريقة ، إن سلكوا طريق الوصول إلى الخير وتوكلوا عليه سبحانه حق التوكل ، وأنه يصيب الأقوام بالرجز والحرمان والبلايا إن هم طغوا وبغوا .

ذكرنا هذا لبيان أن محمدا ﷺ قد كان وجوده بركة على قومه من وقت أن علقت به أمه إلى أن قبضه الله تعالى إليه ، وأن البركة التى أتاها الله تعالى لقومه مباشرة من وقت العلوق به فى بطن أمه، كانت خيراً على الإنسانية كلها ، لأنها حمت البيت الذى كان أول

---

[1] سورة الأعراف الآية ٩٦ .

[2] سورة الأعراف الآية ١٣٠ .

بيت للناس ، وهى كعبة المسلمين .

وقد كان انقاذ البيت ، وهو فى بطن أمه ، إذ أن أبرهة ملك الحبشة واليمن أراد اقتلاع البيت من مكة وهدمه ، وأن يبنى بدله فى اليمن ليكون ذلك مصادمة لدعوة ابراهيم عليه السلام ، إذ يقول **﴿ ربنا أنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾** (١)

لقد شرف الله تعالى رسوله ﷺ والبلد الحرام بهلاك أصحاب الفيل قبل ولادته عليه السلام بخمسين ليله ." أخرج ابن سعد وابن أبى الدنيا وابن عساكر ، عن أبى جعفر محمد بن على قال : كان قدوم أصحاب الفيل للنصف من المحرم فبين الفيل وبين مولد رسول الله ﷺ خمسون ليلة " (٢) .

وقد أخبر الله تعالى نبيه بذلك فقال : **﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾** (٣) .

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٧ .

(٢) الخصائص الكبرى للسيوطى ٥٠/١ .

(٣) سورة الفيل الآيات من ١ : ٥ .

الفصل الأول

إعداده ﷺ بعد مولده

وحاجة العالم إلى بعثته

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : إعداده ﷺ بعد مولده .

المبحث الثانى : صفاته ﷺ خِلقياً وخُلقياً .

المبحث الثالث : حاجة العالم إلى بعثته .

المبحث الأول

إعداده ﷺ بعد مولده

لقد أعد الله تعالى محمدا ﷺ ؛ من أجل مستقبل عظيم ينتظره ، ومسئولية كبيرة يتحملها ، ودعوة إلى الله يتولى أمرها ، وهذا المستقبل وهذه المسئولية ليست أمرا عاديا وإنما هو أمر له أهميته وخطره ، أهميته من حيث تكوين الذات وإعدادها ، وخطره من حيث المسئولية والدعوة والأمة التى تكون فيها الدعوة.

ولقد اختاره الله للرسالة ولكنه تعالى اصطنعه لنفسه قبل أن يمنحه النبوة لله .

أجل ! وهذه الفترة من حياته ، التى سبقت البعثة ، كانت فترة جهاد وصراع روحى هادئ بكل معنى الهدوء ، عنيف أشد العنف : مستمر لا ينقطع ، فيه الحزن ، وفيه الرجاء . وفيه الكثير من الأمل الوثاب الذى يشحذ العزيمة ويسد على اليائس القانط كل منفذ.

كان صلوات الله عليه ، يتوج – كل عام – جهاده الروحى المتصل ، بشهر يقضيه فى غار حراء : حيث الخلوة التامة ، وحيث التجرد المطلق ، عن كل ما سوى الله .

ولقد ظهرت فى حياة النبى ﷺ فى صغره وقبل البعثه دلائل باهرة وآيات بينات تدل على حسن رعاية الله لـــه ، وتشـــير إلـــى عظمته الشخصية ، وكما له البشرى .

وهذه الدلائل الباهرة والآيات البينات بدأت معه وأخذت تنمـــو بنموه وتعظم بعظمته . مما دعت العقول إلى التفكـــر والتدبـــر أن هـــذا اليتيم الذى رعاه الله بحسن إيوائه وحفظـــه وحقـــق الخـــير والبركة على يديه له شأن عظيم ومستقبل زاهر .

من هذه الدلائل والآيات :

أولا : رضاعته :

كان من عادة أشراف العرب من أهل مكة يبعثون أبناءهم إلـــى البادية فى اليوم الثامن من مولدهم ثم يعودون إلى الحضـــر حتـــى يبلغوا الثامنة أو العاشرة . ومن قبائل البادية من لها فى المراضـــع شهرة ، ومن بينها قبيلة بنى سعد .

انتظرت آمنة مجئ المراضع من بنى سعد لتدفـــع بـــه إلـــى احداهن. حتى جائت مراضع بنى سعد إلى مكة يلتمســـن الأطفـــال لإرضاعهم وكن يُعرضن عن اليتامى لأنهن كن يرتجين البر مـــن الآباء . أما اليتامى فكان الرجاء فيهن قليلاً ، لذلك لم تقبل واحـــدة من أولئك المراضع على محمد ﷺ - وذهبت كل مرضعة بمـــن ترجو من أهله وافر الخير .

ويروى أن حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية كانت تحدث : أنـــها خرجت من بلدها مع زوجها ، وابن لها صغير [1] ترضعــــه فـــى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء قالت : وذلك فى سنة شهباء . لم تبق لنا شـيئاً . قالت : فخرجت علـــى أتـــان لـــى قمراء [2] ، معنا شارف [3] لنا ، والله ما تبض بقطرة [4] ، وما ننام ليلنا من صبينا الذى معنا ، من بكائه من الجوع ، ما فى ثديى مـــا يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفــرج . فخرجت على أتانى تلك ، فلقد أَدَمْتُ [5] بالركب حتى شـــق ذلـــك عليهم ضعفا وعجفا [6] ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لهم إنـــه يتيم ، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبـــى ، فكنـــا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ! فكنا نكرهه لذلـــك ، فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعاً غيرى ، فلما أجمعنـــا الانطلاق قلت لصاحبى : والله إنى لأكـــره أن أرجـــع مـــن بيـــن صواحبى ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنـــه ،

---

(1) يقال إن اسمه عبد الله بن الحارث . راجع الطبقات الكبرى لابن سعد .

(2) الأتان القمراء : الحمارة التى يميل لونها إلى الخضرة .

(3) الشارف : الناقة المسنة .

(4) ما تبض : ما ترشح بشئ .

(5) أدمت بالركب : أطلت عليهم المسافة لتمهلهم عليها ، أى تأخر الركب بسببها .

(6) العجف : الهزال .

قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . قالت : فذهبت إليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره . قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى رويا ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجى إلى شارفنا تلك ، فإذا إنها لحافل ، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهيا ريا وشبعا ، نبتنا بخير ليلة . قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا : والله يا حليمة . لقد أخذت نسمة مباركة . قالت : فقلت : والله إنى لأرجو ذلك . قالت : ثم خرجنا وركبت أتانى ، وحملته عليها معى [1] .

وكانت تحدث أنها وجدت فيه منذ أخذته أى بركة ؛ سمنت غنمها وزاد لبنها ، وبارك الله لها فى كل ما عندها .

وأقام محمد فى الصحراء سنتين ترضعه حليمة وتحتضنه إبنتها الشيماء ويجد هو فى هواء الصحراء وخشونة عيش البادية ما يسرع به إلى النمو ويزيد فى وسامة خلقه وحسن تكوينه. فلما أتم سنتيه وآن فصاله ذهبت به إلى أمه ثم عادت به إلى البادية، رغبة من أمه ، حتى يغلظ وخوفا عليه من وباء مكة. وأقام الطفل الصحراء سنتين آخريين يمرح فى جو باديتها الصحو الطلق

---

[1] راجع سيرة ابن هشام ١/١٧١ - ١٧٣ بتصرف .

لا يعرف قيداً من قيود الروح ولا من قيود المادة [١] .

ثانيا : ما حدث له من حادث شق الصدر :

لقد جرت سنة الله مع أنبيائه أن يعدهم ويكرمهم بـــالمعجزات الخارقة ، قبل أن يبعثهم للناس ، حتى تتهيأ العقول بعد ذلك لقبــول دعوتهم .

وتذكر الروايات التاريخية عن محمد ﷺ وهـــو فـــى ســن الثالثـــة من عمره أنه كان مع أخيه من الرضاع فى بَهْم [٢] خلـــف بيوتهم ، فعاد أخوه الطفل السعدى يقول لأبيه وأمه : ذلـــك أخـــى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه فشقا بطنـــه فهما يسوطانه [٣] .

تقول السيدة حليمة : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائمـــاً منتقعاً [٤] وجهه فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك يا بنـــى ؟ قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعانى ، فشقا بطنى، فالتمسا فيه شيئاً لم أدر ما هو ؟

قالت : وقال لى أبـــوه يا حليمة ، لقـــد خشيت أن يكـــون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به ، فقدمنا بـــه

---

(١) حياة محمد . لمحمد حسين هيكل ص ١١٠ .

(٢) البَهْم : الصغار من الغنم ، واحدتها : بهمة ، يقصد : أنهما كانا بجوار البهم وهـــو حظيرة الغنم .

(٣) يسوطانه : يخوضانه ويقلبانه .

(٤) منتقعا وجهه : أى متغيراً .

على أمه آمنة ، فقالت : ما أقدمك به يا ظئر [١] وقد كنـــت حريصـــة عليه، وعلى مكثه عندك ، فقصت عليها السيدة حليمة النبأ .

فطمأنتها آمنة قائلة : إن لابنى هذا لشأنا ، فلم أكن أحس أثنـــاء حمله بشئ مما تجده الحوامل ، وقد رأيت وأنا أحمله كأن نوراً خـــرج منى فأضاء لى قصور الشام .

ثم طلبت منها أن تعود بـــه إلى البـــادية مرة ثانية . فعادت به حليمة ، وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره [٢]

أخرج مسلم [٣] عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتاه جـــبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاســـتخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ثـــم غســـله فـــى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده فى مكانه وجاء الغلمـــان يسعون إلى أمه يعنى ظئره فقالوا إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون . قال أنس : وقد كنت أرى ذلك المخيط فى صدره .

وتـــروى كـــــتب السنـــة وقـــوع هــــذه الحـــادثة لـــلرســـول ﷺ ليـــلة الإســـراء فـــقـــد روى البـــخـــارى [٤]

---

[١] الظئر : العاطفة على ولد غيرها المرضعة له .

[٢] راجع السيرة النبوية ١٧٣ ، ١٧٤ بتصرف .

[٣] أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الإيمان . باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلـــوات ٢١٦/٢ ، ٢١٧ شرح النووى .

[٤] أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب : الصلاة . باب : كيف فرضت الصلاة فـــى الإســـراء ٤/٢-٩ من الفتح .

ومسلم [1] عن الرسول ﷺ أنه قال : " فرج عن سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه فى صدرى ، ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء الدنيا ... " الحديث .

وقد اختلف العلماء فى معنى شق الصدر ، فيرى البعض منهم إلى أنه شق حقيقى وأنه معجزة وقعت مرتين : مرة قبل البعثة ، ومرة بعدها ليلة الإسراء كما سبق أن بينا فى رواية البخارى ومسلم .

فأما قبل البعثة ، فلكى تكون إرهاصاً للنبوة ، وبشيراً بما ينتظر لمحمد ﷺ من مركز كبير ومقام كبير ، وأما بعد البعثة فلكى تكون معجزة تضاف إلى المعجزات الأخرى التى كرم الله بها نبيه ﷺ والتى تؤيد صدقه فى دعواه [2] .

ويرى البعض الآخر أن حادث شق الصدر لم يقع حقيقة وإنما هو من أساليب المجاز فقوله تعالى ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [3] إشارة إلى تطهير الرسول ﷺ من الشوائب التى توجد فى نفوس الناس .

فقد ذكر الشوكانى فى تفسيره [4] أن معنى الشرح : البسط

---

[1] فى صحيحه . كتاب : الإيمان . باب : الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات ٢١٧/٢ – ٢٢٢ شرح النووى .

[2] أنظر القول المبين فى سيرة سيد المرسلين للدكتور / محمد الطيب النجار ص ٦٤ .

[3] سورة الشرح الآية (١) .

[4] فتح القدير ٤٦١/٥ .

والتوسعة ثم قال : " وإنما خص الصدر لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات . والمراد : الإمتنان عليـــه ﷺ بفتــح صـــدره وتوسيعه حتى قام بما قام به من الدعوة ، وقدر على ما قدر عليـــه من حمل أعباء النبوة وحفظ الوحى " أ. هــ .

وممن يرون هذا الرأى – من علماء هــذا العصــر – الشـــيخ محمد الغزالى فى كتابه فقه السيرة [1] ، فلقد جاء فيه : " إن بشـــراً ممتازاً كمحمد لا تدعه العناية غرضاً للوساوس الصغـــيرة التـــى تناوش غيره من سائر الناس .

فإذا كانت للشر موجات تملأ الآفاق ، وكـــانت هنـــاك قلـــوب تسرع إلى إلتقاطها والتأثر بها ، فقلوب النبيين _ بتولى الله لـــها – لاتستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها ، وبذلك يكـــون جـــهد المرسلين فى متابعة الترقى لا فى مقاومة التدلى ، وفـــى تطـــهير العامة من المنكر لا فى التطهر منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته .

عن عبد الله بن مسعود قال : قـــــال رســـــول الله ﷺ : " مـــا منكــم مــن أحــد إلا وقــد وكــل بــه قرينـــــه مــــن الجن وقرينــــه مــن الملائكة ، قـــالوا: وإيـــاك يـــا رســـول الله ؟ قـــال : وإيـــاى ، إلا أن الله أعـــاننى عليه فأسلم ، فـــلا يأمـــرنى إلا بخيـــر " ، ثـــم يقـــول الشيـــخ الغزالى : ولعــــل أحاديث

---

[1] كتاب فقه السيرة ص ٤٩ ، ٥٠ .

شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التى أصفاها الله على محمد فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبع الإنسانى ومفاتن الحياة الأرضية ..

وأضاف الشيخ محمد الغزالى قائلاً : وشرح الصدر عنته الآيات ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ ليس نتيجة جراحة يجريها ملك أو طبيب .. "

ولكن الدكتور / محمد الطيب النجار يرى أن شق الصدر على حقيقته فقال : " إن محمداً لم تدعه العناية غرضاً للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس ، وإنه لو لم يقم الملكان بشق صدره لما كان أبداً غرضاً للوساوس ، بل لكان مثله كمثل جميع الرسل الذين اصطفاهم الله من عباده وطهر قلوبهم من الوساوس دون أن تشق صدورهم .. وإنما أراد الله بهذه الحادثة الفريدة فى نوعها أن تتوجه الأنظار والقلوب إلى محمد فى طفولته وبعد بعثته ، ويعرف الناس عنه أن عناية خاصة تحيط به وتميزه عن غيره ، وأن العناية التى أحيت الموتى وأبرأت الأكمه والأبرص على يد المسيح عليه السلام هى العناية التى شقت صدر محمد ثم أرجعته فى لحظات إلى حالته الطبيعية .. وهذا شأن المعجزات التى لا تخضع ولا ترتبط بالأسباب العادية .

وأضاف قائلاً : ولا ينبغى بأى حال أن تحمل القصة على أنها من الأساليب المجازية ، لأن سياق القصة والتعبير بلفظ " جاءنى

رجلان عليهما ثياب بيض " وكلمة " فأضجعاني وشقا بطني " وفرار أخيه من الرضاعة فزعاً مما رأى ، ومجئ السيدة حليمة هي وزوجها بعد أن أخبرهما ولدهما بما أصاب أخاه محمداً ، ومقابلتهما لمحمد وهو ممتقع لونه ، وحكايته للقصة مرة ثانية بنفس هذه الألفاظ — كل ذلك يجعل الحقيقة في هذه القصة واضحة لذي عينين " [1] .

ولا يعنينا هنا — لا في قليل ولا في كثير — أن نُجارِيَ الماديين في جدلهم فيما يتعلق بشقّ الصدر ، فالأمر أسمى بكثير من المماراة في الشكل والكيف ، والزمان والمكان .

والمغزى أعمق من أن نتجاوزه إلى المماحكات التي تشعر بضعف الإيمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .

لقد روت كتب السنَّة بالأسانيد الصحيحة ، وروت كتب السيرة هذه الحادثة التي توجه النظر إلى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله منذ طفولته المبكرة ، وإن من مظاهر هذه العناية أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه من سبيل .

إن الله سبحانه وتعالى — وقد شاءت إرادته — منذ الأزل — أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين - أراد سبحانه ، أن

---

[1] القول المبين في سيرة سيد المرسلين للدكتور/محمد الطيب النجار ص ٦٥،٦٦ .

يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل .

والإنسان يبدأ السير نحو الكمال بطهارة القلب ، وتصفية النفس ، والتوبة والإخلاص ، أو بتعبير آخر – بشقّ الصدر واستخراج حظ الشيطان منه ، وأرسل الله ملائكته فشقّوا عن صدر الرسول ﷺ واستخرجوا حظ الشيطان منه . وأرسلهم فشقّوا عن صدره وملَئُوه سكينة .

استخرج جبريل حظ الشيطان من قلب صلوات الله وسلامه عليه في سنّ مبكرة فكان صلوات الله وسلامه عليه – كما تقول السيدة آمنة :- " والله ما للشيطان عليه من سبيل " .

وحقيقة أنه لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس حياته كلها .

وقد تحدث الرسول ﷺ عن هذه الحادثة بعد البعثة حينما كان يسترجع ذكريات الطفولة ويقصها على أصحابه .

قال ابن إسحاق وحدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم ، ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعي .

" أن نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له : يا رسول الله : أخبرنا عن نفسك . قال : نعم . أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخي عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واستُرضعت في بني سعد بن بكر ، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بُهْما لنا ، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب

بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجا ، ثم أخذاني فشقا بطني ، واستخرجا قلبي فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، فقال : دعه عنك ، فو الله لو وزنته بأمته لوزنها " [1] .

وبهذا يكون حادث شق الصدر قد وقع بطريقة حسية ، وأنه من الإرهاصات التي تبشر بنبوة محمد ﷺ وتعده لتحمل أعباء الرسالة .

ثالثا : موت أمه ورعاية الله له ﷺ بعد موتها :

لقد أراد الله تعالى أن تموت أم النبي ﷺ وهو ابن ست سنين بالأبواء . بين مكة والمدينة ، قد كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار ، كما حكم الله تعالى لوالده الموت من قبل وهو في بطن أمه .

وهكذا كانت إرادة الله تعالى وحكمته ، أن يعيش النبي ﷺ يتيما حتى يتعود حياة الشدة من صغره ، وليتربى تربية خاصة تؤهله لتحمل المسئولية الكبرى ، وليصنعه الله تعالى صناعة

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام ١/١٧٥ – ١٧٦ .

يرضاها له كما قال تعالى ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ [١] وليعلمه أن رعاية الله وحفظه ليس بعدهما رعاية وحفظ ، وقد ذكَّره الله تعالى بنعمته عليه فقال : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ [٢] .

يقول الشيخ المراغى :" ولو تدبر المنصف فى رعاية الله لـه ، وحياطته بحفظه وحسن تنشئته ، لوجد من ذلك العجب ، فلقد كان اليتيم وحده مدعاة إلى المضيعة وفساد الخلق ، لقلة من يحفل باليتيم ويحرص عليه ، وكان فى خُلق أهل مكة وعاداتهم ما فيه الكفايـــة فى إضلاله لو أنه سار على سيرتهم ، لكن عناية الله كانت ترعاه ، وتمنعه السير على نهجهم ، فكان الوفىّ الذى لا يميـــن ، والأميـــن الذى لا يخون ، والصادق الذى لا يكذب ، والطاهر الذى لم يدنـس برجس الجاهلية " [٣] .

وروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه لما توفى عبـــد الله قالت الملائكة " إلهنا وسيدنا بقى نبيك يتيماً " فقال تعالى : " أنا لـــه حافظ ونصير " [٤] .

وقيل لجعفر الصادق : " لِمَ يُتِّم النبى ﷺ من أبويه ؟ فقال : لئـــلا يكون عليه حق لمخلوق " [٥] .

---

[١] سورة الطور الآية ٤٨ .

[٢] سورة الضحى الآية ٦ .

[٣] تفسير المراغى ٣٠ /١٨٥ .

[٤] الرسول ﷺ د. عبد الحليم محمود ص ٥١ .

[٥] البحر المحيط لأبى حيان ١٠ / ٤٩٧ .

وبعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب ورق له قلبه رقة لم تسبق له فى ولده ؛ وكان ذلك ليتمه ﷺ فيعوضه عن فقد والديه ، ولأنه كان يرى فيه عوضا عن ابنه عبد الله الذى فقده وهو فى ريعان شبابه .

قال ابن إسحاق : كان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب ابن هاشم ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه . لا يجلس عليه أحد من بنيه اجلالا له . قال : فكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام جفر ، حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب ، إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى ، فوالله إن له لشأنا ، ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع [١] .

ولكن عبد المطلب مات فى الثمانين من عمره ومحمد ما يزال فى الثامنة . وحزن محمد ﷺ لموت جده حزنه لموت أمه . حزن حتى كان دائم البكاء وهو يتبع نعشه إلى مقره الأخير ، وكان دائم الذكر من بعد ذلك له [٢].

وبعد جده كفله عمه أبو طالب وإن لم يكن أكبر إخوته سنا ، فقد كان الحارث أسنهم ، ولم يكن أكثرهم يسارا فقد كان العباس

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام ١٧٨/١ .

[٢] حياة محمد ، لمحمد حسين هيكل ص ١١٤ .

أكثرهم مالاً ، لكنه كان على ماله حريصاً ، لذلك احتفظ بالسقاية وحدها دون الرفادة . فلا عجب أن أوصى عبد المطلب أبنه أبا طالب بكفالة محمد ﷺ من بعده رغم فقره . وقيل : لأن عبد الله أبا رسول الله ﷺ ، وأبا طالب أخوان لأب وأم ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد الله بن عمران بن مخزوم [1] .

وقيل : لأنه كان على فقره أنبلهم وأكرمهم في قريش مكانة واحتراماً .

وقد أحب أبو طالب ابن أخيه كحب عبد المطلب له . فكان عطوفاً عليه رحيماً به شديد الحب له حتى كان يقدمه على أبنائه ، وكان أبو طالب قليل المال كثير العيال ففتح الله له أبواب الخير والبركة بعد ما كفل ابن أخيه محمد ﷺ فزاد حبه له . وكانت هذه رعاية الله لنبيه . فأي رعاية بعد رعاية الله تعالى ؟! لقد كانت زادا له في طريق الدعوة ونشر الرسالة فقال تعالى : ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى** ﴾ [2] ، وليعوده الرفق باليتامى ، فمن ذاق مرارة الضيق في نفسه ، فما أجدره أن يستشعرها في غيره ، فكما باعد الله عنه ذل اليتم فآواه ، فمن أولى منه بأن يكرم كل يتيم شكراً لله على نعمته. قال تعالى : ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر** ﴾ [3] .

---

[1] السيرة النبوية ١/١٨٩ .

[2] سورة الضحى الآية ٦ .

[3] سورة الضحى الآية ٩ .

وكأنما كانت إرادته سبحانه أن ينشأ يتيماً فقيراً لتكـــون هـــذه العصامية أبرز خلاله وأوضح صفاته ، وأميز خصائصه ، وليكون ذلك امتحانا لرجولته ، وتربية له ، وإعدادا لهذا المستقبل الحـــافل الذى كان ينتظره ، والمهمة العظمى التى كانت تترقبه .

رابعاً : حديث بحيرى الراهب لعمه أبي طالب :

كان أبو طالب يجد فى محمـــد ﷺ النجابـــة والذكـــاء والـــبر وطيـــب النفس ما يزيده به تعلقاً . ولما بلغ ﷺ الثانية عشرة مـــن عمره خرج مع عمه فى تجارة له إلى الشام حتى بلغا بُصْرى فـــى جنوب الشام . وتروى كتب السيرة أنه التقى فـــى هـــذه الرحلـــة بالراهب بحيرى ، وأن الراهب لمَّا رأى فيه أمارات النبوة على مـــا تدله عليه أنباء النصرانية ، قام إليه ، فقال له : يا غلام ، أســـألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه وإنما قال لـــه بحيرى ذلك ، لأنه سمع قومه يحلفون بهما . ويقال : إنمـــا ســـأله باللات والعزى اختباراً — فقال ﷺ : لا تسألنى باللات والعـــزى ، فو الله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما ، فقال له بحيرى : فبالله إلا مـــا اخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال له : سلنى عما بدا لـــك . فجعـــل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره ، فجعل رســـول الله ﷺ يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفتـــه التـــى عنده .

قال ابن إسحاق : " فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابنى . قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً ، قال : فإنه ابن أخى ، قال : فما فعل أبوه ، قال : مات وأمه حُبْلى به قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لَيَبْغُنه شراً فإنه كأن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده " [1] .

ولا شك أن هذه الرحلة كان لها أثر كبير فى إعداد الرسول ﷺ لتحمل أعباء الرسالة ، فلقد وسعت أفقه وزادت من تجاربه ، وفتحت بين يديه أبواباً من الأمل الواسع فى مستقبل عظيم ومجد كبير مهما كان كيد الكائدين فهو محفوظ بحفظ الله تعالى ورعايته .

خامساً : رعيه الغنم كما كان أسلافه من الأنبياء :

كان ﷺ يرعى الغنم فى ديار بنى سعد لحليمة السعدية وهو صغير ، وكانت أرضها جدباء فاخضرت وكانت تروح شباعاً حتى شهد ببركته الحاضرون ، وبعد عودته إلى مكة كان يرعى لأهلها على قراريط [2] .

---

[1] السيرة النبوية ١/١٩٣ ـ ١٩٤ .

[2] تاريخ العالم الإسلامى للدكتور محمود زيادة ص١٥٣. ط ١٩٧٠ بتصرف .

وكان يذكر رعيه إياها مغتبطاً . فعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : " ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم — فقال الصحابة : وأنت ؟ فقال : نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة [1]. وقال عليه السلام : بعث موسى وهو راعى غنم ، وبعث داود وهو راعى غنم ، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلى بأجياد .

لقد ظل حياته ﷺ كلها قبل البعثة يعمل بالأجر فى رعى الغنم تارة ، وفى التجارة تارة أخرى ، ليأكل من كده ، ويرزق من جده، فلا يكون عنواناً سيئاً للمتواكلين الذين يشيعون الكسل والقعود عن طلب الرزق .

قال ابن حجر : " قال العلماء : الحكمة فى إلهام الأنبياء من رعى الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكفلونه من القيام بأمر أمتهم ولأن فى مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها فى المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق ، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ألفوا من ذلك الصبر على الأمة وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها ، فجبروا كسرها ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها ، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا

---

[1] أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الإجارة . باب رعى الغنم على قراريط ٣٤٨/٥ من الفتح .

القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريج علـــى ذلـــك برعى الغنم .

وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرهـــا ولأن تفرقـــها أكثر من تفرق الإبل أو البقر لإمكان ضبط الإبل والبقـــر بـــالربط دونها فى العادة المألوفة ، ومع أكثرية تفرقها فهى أسرع انقياداً من غيرها " [١] .

وهكذا أراد الله تعالى أن يعد محمداً ﷺ برعى الغنم ليتـــعود المسئولية ، فإذا انتقل إلى رعاية البشر رعى أمرهم خير رعاية .

هذا إلى ما فى رعى الغنم من قضاء نهاره وبعض ليلـــه فـــى البادية فيتمتع بالسماء الصافية ، والشمس المشرقة ، والهواء النقى، ويطيل التأمل والنظر فى الســـماء ذات الأبـــراج ، والأرض ذات الفجاج ، والجبال ذات الألوان ، وبذلك يصير التأمل والتدبر ملكـــة من ملكات النفس .

سادساً : اشتراكه فى حرب الفجار :

لقد أعد الله تعالى محمداً ﷺ لحمل السلاح والاشـــتراك فـــى الحروب والغزوات منذ صغره ؛ إذ وقف إلى جانب أعمامـــه فـــى حرب الفجار ، وقد سميت حرب الفجار لأنها وقعت فى الأشـــهر الحرم ، وكانت هذه الحرب بين كنانة وقيس .

---

[١] أنظر فتح البارى لابن حجر ٣٤٨/٥ .

وقصة هذه الحرب ، التى انتهك فيها شهر الحرام أن رجلاً من بنى هوازن اسمه عروة الرجال أجار عيرا للنعمان ابن المنذر فيها تجارة وطيب وحرير ، ومعنى إجارتها منع أى أحد من أن يعتدى عليها ، ويقال إنها فى جواره ، وتسمى هذه العير اللطيمة .

فلما كانت هذه الإجارة كبر على بعض رجال كنانة أن يمنعها من كنانة ، وهو البراص بن قيس ، فقَال غاضباً أتجيرها على كنانة ، فقال عروة نعم وعلى الخلق كله .

فسار الرجلان ، وقد غافل البراص الكنانى عروة ، وقتله ، فقامت الحرب بين القبيلتين وانضمت إلى كنانة ، والتقت كنانة وقريش ، مع هوازن ، واقتتلوا أربعة أيام ، حضر النبى ﷺ رابعها[1] . قال رسول الله ﷺ :" كنت أنبل على أعمامى : أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها " [2] .

لعل هذه الحرب كانت بالنسبة للنبى ﷺ إطلاله على ساحات الحرب كى يعده الله تبارك وتعالى للجهاد لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

---

[1] أنظر خاتم النبيين – محمد أبو زهرة ص ١٥٠ ، وعيون الأثر – لابن سيد الناس ص٥٨ ، ٥٩ .

[2] سيرة ابن هشام ١٩٨/١ .

سابعاً : اشتراكه في حلف الفضول :

عاش النبى ﷺ فى مطلع حياته مع قومه يشاركهم وجدانهم ، إذ كان يتجه إلى الخير ، ويتجنب الشر ولا ينغمس ، فهو يفعل ما يتفق مع الفطرة المستقيمة التى فطره الله تعالى عليها ، والمنهاج القويم الذى هداه الله تعالى إليه ، وأدبه بأدبه .

ومن ذلك حلف الفضول ، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر ، وكان عمر النبى ﷺ وقتئذ عشرين عاماً .

وكان أكرم حلف وأفضله فى العرب فى الجاهليه وسببه أن رجلاً من بلدة " زبيد" باليمن قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمى ، وأبى أن يعطيه حقه ، فاستعان بعبد الدار ، ومخزوماً ، وجمحا ، وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل ، فلما رأى الرجل أن حقه ضائع صعد على جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة، فاستصرخهم لرد الظلم الواقع عليه بجوار بيت الله الحرام .

وكان أول من استجاب لندائه ، وتقدم لإغاثته بنو عبد المطلب، فقام الزبير بن العوام ، وقال : ما لهذا مترك ، أى لا يصح أن يترك فاجتمعت بنو هاشم ، وزهرة ، وبنو تيم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً ، وكان ذلك فى ذى القعدة الشهر الحرام فتعاقدوا وتحالفوا ليكونن على الظالم ، حتى يؤدى إليه حقه مابل بحر صوفه (أى إلى الأبد) فسمت قريش هذا

الحلف " حلف الفضول " وقد نفذ هذا الحلف فور انعقاده ، فقد مشى المتعاقدون إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها إليه .

وقد حضر النبى ﷺ هذا الحلف الذى رفعوا به منار الحق ، وهدموا به صرح الظلم ، وهو يعتبر من مفاخر العرب وعرفانهم لحقوق الإنسان .

وسُر النبى ﷺ لشهوده ذلك الحلف ، وأعلن أنه ينفذه فى الإسلام : " لقد شهدت بدار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت لمثله فى الإسلام لأجبت " [١] .

ويعتبر حضور الرسول ﷺ لحلف الفضول العظيم قبل البعثة بمثابة إعداد لمحمد ﷺ وتدريب عملى على الفصل فى القضايا ، والحكم فى الخصومات ، والإصلاح بين الناس ، فقد ترك فى نفسه أعمق الآثار لأنه حلف إنسانى يدعو إلى الخير ومكارم الأخلاق ، ويمهد لزعامة وقيادة الأمة الإسلامية ، ولإستقرار الأمن والأمان ، والمحافظة على الحقوق والأرواح ، وأن يسود التعاون والرخاء بين الأمة الإسلامية . وبذلك يعيش كل فرد مطمئن على ذاته وعرضه وماله إذا شعر أن فيها من يرد الحقوق إلى أهلها ، وينتصر للمظلومين .

---

[١] أنظر عيون الأثر – لابن سيد الناس ص ٥٩ ، والسيرة النبوية – محمد أبو شهبه ص ٢١٩ – ٢٢٠ وخاتم النبيين – محمد أبو زهرة ص ١٥١ – ١٥٣ .

ولعل هذا الإعداد الذى تلقاه ﷺ مبكراً كان من عوامل الارتيــــاح إلى حكمه فيما كان يجد من نزاع بين العرب . يتولى هـــو فضـــه أو الفصل فيه كما حدث عندما اختلفت قريش من ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه من البناء .

ثامناً : حكمته الرشيدة فى فض نزاع قريش فى مشــكلة الحجــر الأسود :

وذلك أن قريش اجتمعت لبنيان الكعبة ، واشتركت كل القبائل فـــى جمع الحجارة ، فكانت كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها ، ولما بلـــغ البنيان موضع الركن (أى الحجر الأسود . وسمى ركنا، لأنه مبنى فـى الركن) اختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلـــى موضعـــه دون الأخرى ، حتى تجاوزوا وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فقال أبو أميـــة بـــن المغيرة ، وكان أسن قريش يومئذ ، يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكـــم فيـــه ، ففعلوا . فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قـــالوا : هـــذا الأمين ، رضينا هذا محمد ، وكان عمره وقتئذ خمساً وثلاثون ســـنة .. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ : هلم إلى ثوبا ، فأُتى بـــه ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده الشريفة ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحيـــة من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه [1].

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٠٩ - ٢١٠ بتصرف .

فهذا الخلاف بين القبائل ، وهذا الاحتكام لأول داخل من باب الصفا ، وشاء القدر أن يكون هو محمد المعروف عندهم بالأمين ، وفى إسراع قريش إلى الرضا بحكمه ، وتصرفه هو فى أخذ الحجر ووضعه على الثوب وأخذه من الثوب لوضعه مكانه من جدار الكعبة ، يدل على ما كان له ﷺ من مكانة سامية فى نفوس أهل مكة ، ومن تقدير جم لما عرف عنه من سمو النفس ونزاهة القصد.

ولا شك أن هذه الأحداث تدل على أن الإعداد الإلهى كان معه خطوة خطوة منذ ولدته أمه — وقبل أن تلده — وإذا نحن أنعمنا النظر فى حياته كلها قلنا أنها استمرار على هذا الخط ، وسير على هذا الدرب ، فشق صدره الشريف وهو فى كنف حليمة ثم تكرار ذلك ليلة الإسراء والمعراج ، وموت أبيه ، وموت أمه بعد ذلك ، وكل هذه الشدائد التى كان ﷺ يلاقيها ، ليست كلها إلا إعدادا ولقد كانت الحادثة الواحدة من سفاهة السفهاء ، وكيد الأعداء وتطاول الحمقى جديرة وحدها أن تحول وجهه ، وتعوق سيره ، وتصده عن المضى إلى الغاية ، لو أنه استسلم وألقى سلاحه لكنه كان يعلم أنه الابتلاء الذى تجتازه الأبطال ، ويمر به المصلحون ، ولا يصادف إلا أولى العزم من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام . .

تاسعاً : ما حدث له ﷺ في رحلته بتجارة السيدة خديجة وربحـــها ببركته :

كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثـــير تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه ، بشئ تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجارا ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغـــها ، مـــن صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضـــل مـــا كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبلـــه رسول الله ﷺ منها ، وخرج فى مالها ذلك ، وخرج معه غلامـــها ميسرة حتى قدم الشام [1].

بركات وبشارات أثناء الرحلة :

لقد توافرت العديد من البركات والبشارات التى صاحبت محمد ﷺ أثناء رحلته إلى الشام فى تجارة السيدة خديجـــة - رضـــى الله عنها — وكان عمره وقتئذ خمس وعشرون ســـنة فمـــن البركـــات النبوية :

١- " ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي " :

هذه الجملة قالها راهب يقال له (نسطورا) حين نزل رســـول الله ﷺ فى ظل شجرة قريباً من صومعة هـــذا الراهـــب فـــاطلع

---

(١) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ١٣٠/١ ، وعيون الأثر لابن سيد الناس ٧١/١ .

الراهب إلى ميسرة ، فقال له : من هذا الرجل الذى نزل تحت هـذه الشجرة ؟ قال ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم ، فقـال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى [1].

وقد استبعد بعض كتاب السيرة هذا المعنى ، لبعد العهد بيـن محمد ﷺ ، وعيسى عليه السلام ، والشجرة فـى نظـر هـؤلاء المستبعدين لا تعمر فى العادة هذا العمر الطويـل ، وليـس مـن المعقول أن تخلو شجرة من أن ينزل فيها السـيارة فـى الطريـق الطويل ، وفيه الظـل والحـرور ، اللـهم إلا أن يقـال إن هـذه خصوصية للأنبياء ، ينصرف عن الإيواء إليها غـيرهم ، ويجـئ إليها النبيون كأنهم مأمورون بالإيواء .

ولهذا الإستبعاد فسر الأكثرون كلام الراهب بأنه ما نـزل الآن فى هذه الساعة تحت هذه الشجرة إلا نبى فهو يخص محمـداً ﷺ ، بوصف النبوة باعتبار أنه هو الذى نزل الآن ، لأمارات عنده [2] .

وربما نميل إلى ذلك التفسير ، لأنه لا دليل علـى تخصيـص الأنبياء بشجر أو منزل أو نحو ذلك ، وإنما التخصص فى الإكـرام الشخصى ، والأمارات الظاهرة فيه .

٢ — <u>ما حلفت بهما قط :</u>

لما دخل رسول الله ﷺ سوق بصرى .. كان بينه وبين رجل

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام ١/١٩٩ .

[2] راجع الروض الأنف للسهيلى .

اختلاف فى سلعة فقال الرجل : احلف بـــاللات والعـــزى ، فقـــال رسول الله ﷺ " ما حلفت بهما قط " ، فقـــال الرجـــل : القـــول قولك،ثم قال لميسرة بعد أن خلا به ميسرة . هذا نبى والذى نفســـى بيده ، وأنه لهو نجده أحياناً منعوتاً فى كتبهم فوعى ذلك ميسرة ثـــم انصرف [1] .

٣ - غمامة تظلله :

باع رسول الله ﷺ سلعته التى خرج بها ، واشترى مـــا أراد أن يشترى ، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة وكان ميسرة فيمـــا يزعمون إذا كانت الهاجرة واشتد الحـــر يرى ملكين يظلانه مـــن الشمس وهو يسير على بعيره [2] .

فهل هناك رعاية وصيانة أكثر من ذلك ؟ !

٤ - رؤية السيدة خديجة للملكين :

لما دخل رسول الله ﷺ مكة فى ساعة الظـــهيرة كـــانت الســـيدة خديجة — رضى الله عنها — فى عِلية لها ، فرأت رسول الله ﷺ حيـــن دخل وهو راكب على بعيره ، وملكان يظلان عليه [3] .

وقد ربحت تجارة السيدة خديجة فى هـــذه الرحلـــة ، فبـــاع ﷺ كـــل البضائع التى إشتـــراها فى مكة ، فكـــان الثمن ضعف رأس مال التجارة

---

[1] أنظر عيون الأثر لابن سيد الناس ٧٠/١ ، البداية والنهاية لابن كثير ٢٩٤/٢ .

[2] السيرة النبوية لابن هشام ٢٠٠/١ بتصرف .

[3] الطبقات الكبرى لابن سعد ١٣٠/١ - ١٣١ .

التى ذهب بها محمد ﷺ ، فكأن الكسب كان مثل رأس المال .

وما كان ذلك إلا بفضل أمانة محمد ﷺ ، وحرصه على التجارة ، وبفضل ما هو أعظم من ذلك وهو البركة التى فاضت على محمد ﷺ فيما يعمل .

عاشراً : زواجه من السيدة خديجة – رضى الله عنها :

لقد كان أساس الرباط الزوجى بين الرسول ﷺ وخديجة هو ما امتاز به عليه السلام من مكارم الأخلاق .

ومن ثم فقد قامت خديجة - رضى الله عنها - بأعظم عمل تحقق من زواجها ..

فقد كان عليه السلام أحوج ما يكون فى هذه الساعة إلى صدر الأم الرؤم أكثر من حاجته إلى صدر الزوجة ، وكانت خديجة – رضى الله عنها – هى الزوجة الأم التى تجمع إلى رقة العاطفة عمق التفكير ، فكانت أول خلق الله صدقت برسالته ، وآمنت بالإسلام وكانت مسارعتها أول خطوة فى تثبيت النبى ﷺ وتأييده.

الحادى عشر : نشأ سليم العقيدة :

لقد هيأ الله تعالى محمداً ﷺ ليكون رسولاً لأعظم رسالة فى الوجود ، فأنشأه سليم العقيدة ، صادق الإيمان ، عميق التفكير ، فما عرف عنه أنه سجد لصنم قط ، أو تمسح به ، أو ذهب إلى عراف أو كاهن ، بل بغضت إليه عبادة الأصنام والتمسح بها ،

ولما لقى " بحيرى" الراهب قال له : أسألك بحق اللات ، والعزى إلا أخبرتنى عما أسألك عنه ، وكان " بحيرى " سمع قومه يحلفون بهما، فقال النبى : لا تسألنى بحق اللات والعزى شيئاً ، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما [1] .

وروى البيهقى بسنده عن زيد بن حارثة قال : كان صنم من النحاس يقال له : إساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا فطاف رسول الله وطفت معه ، فلما مررت مسحت به ، فقال لى رسول الله ﷺ : " لا تمسه ، قال زيد : فطفنا فقلت فى نفسى : لأمسنه حتى أنظر ما يكون ، فمسحته ، فقال رسول الله ﷺ : ألم تنه ، قال زيد : فو الذى أكرمه ، وأنزل عليه الكتاب ما ستلم صنما قط حتى أكرمه الله تعالى بالذى أكرمه ، وأنزل عليه [2] .

مما سبق نرى أن النبى ﷺ نشأ نشأة غريبة بين قومه ، فلم تغمره البيئة بتقاليدها ، وعاداتها ، وطباعها ، فما عرف عنه فى طفولته ولا فى شبابه أن قدس آله قومه ولم يحدث التاريخ أنه ﷺ حضر موسم الحج منذ عرف أن قومه يعبدون الأصنام ، ويتقربون لها بالقرابين ، بل كان يعبد الله على ما عرفه من دين ابراهيم عليه السلام ، ونزع إلى الخلوة بعيداً عن الناس ، يقلب فى صفحة الكون مشاهداً عظمة الصانع فى صنعته فيزداد إيمانا وقربا من الله تعالى.

---

[1] البداية والنهاية ٢/٢٨٤ .

[2] المرجع السابق ٢/٢٨٨ .

الثانى عشر : عصمته عن اللهو :

حمى الله تعالى محمداً فى نشأته فلم يرهق فى يتمه ، فنبت نبتاً حسناً محبوباً مألوفاً ، وحمى نفسه من أن تتردى فى مهاوى الانحراف .

وكان الأحداث فى ذلك الوقت الذين انغمس ذووهم أو أولياؤهم فى الشهوات يستولى على قلوبهم حب اللهو البرئ وغير البرئ ، ومنهم من ينزع إلى الشر من بعد .

" لقد كانت مكة – حينما كان رسول الله ﷺ شاباً فتيا قوياً : تعجّ بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسه .

لقد كانت حانات الخمر منتشرة فيها وكذلك البيوت المريبة . وفى هذه وتلك المغنيات والراقصات والماجنات . وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهافت عليه [١].

وكان أشد ما يخشى على محمد – عليه الصلاة والسلام – فى صباه هو عدوى المجون ، إذ هو محبب إلى نفوس الغلمان فى سن المراهقة ومحمد – عليه الصلاة والسلام – كان مراهقا فى هذه السن ، ولكنه تربية الله ، فجنبه ذلك ، فلم يشرب خمراً قط ، ولا اقترف فاحشة ، ولا انغمس فيما كان ينغمس فيه المجتمع العربى حينئذ من اللهو ، واللعب ، والميسر ، والقمار ، ومصاحبة

---

[١] دلائل النبوة . للدكتور عبد الحليم محمود ص ٦٨ . دار الكتاب اللبنانى .

الأشرار ، فقد حفظ الله نبيه ﷺ من هذا كله وأدبه وأثنى عليه فقال:" أدبنى ربى فأحسن تأديبى " .

ولا شك أن القدر أحاطه بالحفظ ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا ، وعندما يرضى باتباع بعض التقاليد غير المحمودة تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها .

روى ابن الأثير : " قال رسول الله ﷺ : ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى برسالته ، قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى الغنم بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ! فقال : افعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا ، فقلت ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجعلت أسمع . فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس . فعدت إلى صاحبى فسألنى ، فأخبرته ، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت بمكة فأصابنى مثل أول ليلة . ثم ما هممت بسوء " [1] .

الثالث عشر : عصمته من كشف عورته :

وكان رسول الله ﷺ يحدث عما كان الله يحفظه به فى صغره وأمر جاهليته فقال :" لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل حجارة

---

[1] الرحيق المختوم للشيخ : صفى الرحمن المباركفورى ص ٧٣ . الجامعة السلفية . الهند - دار الرحمة للنشر والتوزيع .

لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى ، وأخذ إزاره فجعله على رقبته ، يحمل عليه الحجارة ، فإنى لأقبل معهم كذلك وأُدبر ، إذ لكمنى لاكم ما أراه ، لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك ، قال : فأخذته وشددته عليَّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى عليَّ من بين أصحابى " [1] .

وحديث ابن إسحاق هذا أنه ﷺ كان صغيراً وكان يلعب مع الغلمان ولكن هذه القصة وردت أيضاً حين بنيان الكعبة ، وكان رسول الله ﷺ ينقل الحجارة مع قومه إليها وكانوا يحملون أزرهم على عواتقهم لتقيهم الحجارة ، روى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره . فقال له العباس عمه : يا ابن أخى ، لو حللت أزارك . فجعلت على منكبيك دون الحجارة ، قال : فحله فجعله على منكبيه ، فسقط مغشياً عليه ، فما رؤى بعد ذلك عرياناً ﷺ [2] .

الرابع عشر : عصمته من عبادة الأصنام :

لقد مضت فترة الشباب برسول الله ﷺ وهو طاهر زكى . طاهر من الآثام التى تدنس الشباب فى مجتمعاتهم . وزكى ؛ لأنه بعيد عن الشرك : لم يسجد لصنم قط . صلوات الله وسلامه عليه .

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام ١٩٤/١ .

[2] أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الصلاة . باب : كراهية التعرى فى الصلاة ٢٠/٢ من الفتح .

أما ما كان من أمر عبادة الأصنام ، فإن القصة التالية توضح الأمر : " ذكر الواقدى عن أم أيمن قالت : كـــانت بوانـــة صنمـــاً تحضره قريش وتعظمه وتنسك له ، وتحلق عنده ، وتعكف عليـــه يوماً إلى الليل فى كل سنة . فكان أبو طالب يحضره مـــع قومـــه، ويكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد معهم فيأبى ذلك . قالت : حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن يومئـــذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن إنا لنخاف عليك ما تصنع من اجتنـــاب آلهتنا ويقلن : ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ، ولا تكـــثر لهم جمعا ، فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شـــاء الله ، ثـــم رجع مرعوباً فزعاً ، فقلنا ما دهاك قال : إنى أخشى أن يكون بـــى لمم ، فقلنا : ما كان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان ، وكان فيك من خصال الخير ما كان ، فما الذى رأيت ؟ قال : إنى كلما دنوت مـــن صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك يا محمد لا تمسه . قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ صلوات الله عليـــه وسلامه " [1].

قال ابن حجر : وفيه أنه ﷺ كان مصونا عما يســـتقبح قبـــل البعثة وبعدها [2].

---

[1] عيون الأثر : ابن سيد الناس ٥٧/١ .

[2] فتح البارى ٢٠/٢ .

وكما عصمه الله تعالى فى طفولته من العبث والمجـون فقـد عصمه من الشيطان بعد بعثته كما عصمه قبلها . فقد أجمعت الأمة على عصمته ﷺ من الشيطان ، وكفايته منه ، فلم يكن لـه أدنـى تأثير عليه ، لا فى جسـمه بـأنواع الأذى ، ولا علـى خـاطره بالوساوس ، فعن عبد الله بن مسعود قال : قـال رسـول الله ﷺ : ما منكم من أحد إلا وُكِّل به قرينه مـن الجـن ، قـالوا : وإيـاك يا رسول الله ؟ .. قال : وإياى .. إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم [1] فلا يأمرنى إلا بخير " [2] .

وقد ورد فى السنة النبوية بتصدى الشياطين له فى غير موطن رغبة فى إطفاء نوره ، وإماتة نفسه ، وإدخال شغل عليه حتى النبى ﷺ وأسره : أخرج البخارى [3] عن أبى هريرة — رضى الله عنه

---

[1] فأسلم : إما بصيغة الماضى والضمير فيه يعود على الشيطان أى انقاد وكـف عـن وسوستى ، ويشهد لذلك حديث : " كان شيطان آدم كافراً وشيطانى مسلماً " أى دخل فى الإسلام فسلمت منه ، أو بصفة المضارع ، والضمير فيه يعود على الرسول ﷺ : أى أسلمُ أنا منه ومن شره ، ويشهد لهذا الرأى رواية عائشة رضى الله عنـها : " فأسلمُ " بضم الميم . أنظر : النهاية فى غريب الحديث ٣٩٥/٢ ، وعلى أية حال فلا تعارض بين الروايتين فالمقصود أن الله تعالى عصمه من الشيطان سواء بإسـلامه فكف عن وسوسته له ﷺ أو بسلامته من الشيطان الرجيم .

[2] أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب صفات المنافقين . باب تحريض الشـيطان وبعثـه سرايا لفتنة الناس ١٥٧/١٧ شرح النووى .

[3] فى صحيحه . كتاب العمل فى الصلاة . باب : ما يجوز من العمل فى الصلاة ٣٢٣/٣ من الفتح .

عن النبى ﷺ أنه صلى صلاة فقال : إن الشيطان عرض لى فشد علىَّ ليقطع الصلاة علىَّ فأمكننى الله منه فَذَعَتُّهُ [٣] ، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا فتنظروا إليه فذكرت قول سليمان عليه السلام – رب هب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى – فرده الله خاسئاً .

ولما لم يقدر على أذاه بمباشرته حاول بطريقة غير مباشرة حين اجتمعت قريش فى دار الندوة ليتشاوروا فى قتل النبى ﷺ فوقف أبليس اللعين على باب الدار ، فلما رأوه واقفاً على بابها على هيئة شيخ جليل ، قالوا : من الشيخ ؟ قال شيخ من أهل نجد سمع بالذى أتعدتم له ، فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم منه رأيا ونصحا ، قالوا : أجل ، فادخل ، فدخل معهم ، فأخذوا يتشاورون فى طريقة التخلص منه ﷺ إلى أن أشار عليهم بأن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيبا ثم يعطوا كل فتى منهم سيفاً صارماً ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً .

ولكن الله تعالى عصمه من هذه المؤامرة ، فأتى جبريلُ عليه السلام رسول الله ﷺ فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى

---

[٣] ذعته : أى خنقته خنقا شديداً ، أو دفعته دفعاً شديداً .

كنت تبيت عليه وبهذا فقد كفاه أمره ، وعصمه ضره وشره .

الخامس عشر : حفظه من التثاؤب :

لقد حفظ الله تعالى محمداً ﷺ من التثاؤب ويستدل على ذلك بما أخرجه البخارى فى التاريخ وابن أبى شيبة فى المصنف وابن سعد عن يزيد بن الأصم قال : " ما تثاءب النبى ﷺ قط " [١]، ويؤيد ذلك ما ثبت أن التثاؤب من الشيطان ، فقد روى أبو هريرة ، عن النبى ﷺ قال : إن الله يحب العُطاس ويكره التثاؤب ، فإذا عطس أحدكم وحمد الله كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول له يرحمك الله . وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان ، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان " [٢] . قال ابن بطال : إضافة التثاؤب إلى الشيطان بمعنى إضافة الرضا والإرادة : أى أن الشيطان يحب أن يرى الإنسان متثائباً لأنها حالة تتغير فيها صورته فيضحك منه .. " [٣] .

وإذا كان الله تعالى قد حفظ رسوله ﷺ من الشيطان ووساوسه فقد حفظه أيضاً من الناس قال تعالى : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾[٤] .

---

[١] الخصائص الكبرى للسيوطى ١١٢/١ . دار الكتب العلمية . بيروت .

[٢] أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأدب : باب إذا تثاؤب فليضع يده على فيه ٢٣٦/١٣ من الفتح .

[٣] فتح البارى لابن حجر ٢٣٧/١٣ .

[٤] سورة المائدة الآية ٦٧ .

السادس عشر : بُغِّض إليه قول الشعر :

لم يعرف عن النبى ﷺ أن قال شعراً أو أنشأ قصيدة ، أو حاول ذلك ، لأن ذلك لا يتلائم ومقام النبوة شئ آخر ، ولم يكن الشعراء بذوى الأخلاق والسير المرضية ، ويسير الشعر مع العواطف والأهواء ، ولا يتبع ما يمليه العقل والمنطق الصحيح ، ومن ثم كان مستقر الأكاذيب والمبالغات فى الأهاجى والمدائح والتفاخر والتنافر ، فإذا غضب الشاعر أقذع فى القول ، وبالغ فى الذم ، وضرب بالحقيقة عرض الحائط ، ولا يرى فى ذلك ضيراً ، وإذا هو استرضى بعد قليل رفع من هجاه ، وأدخله فى زمرة العظماء ، أو الكرماء الأجواد إلى نحو ذلك مما تراه فى شعر الهجائين المداحين حتى لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا : " أعذب الشعر أكذبه " .

والقرآن الكريم آداب وأخلاق ، وحكم وأحكام ، وتشريع ، فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم ، فرادى وجماعات فحاشى أن يكون شعراً ! أو يمت إليه بنسب .

لذلك نفى الله تعالى عن نبيه ﷺ تعلم الشعر ، وفى نفى تعليمه الشعر نفى أن يكون القرآن شعراً ، لأن الله علمه القرآن وإذا لم يكن المعلم شاعراً لم يكن القرآن شعراً البته .

قال تعالى : ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغى له** ﴾ [١] ومع

---

[١] سورة يس الآية ٦٩ .

هذا فقد كان يتذوق الشعر ، ويستنشده أصحابه أحياناً ، ولا عجب فهو القائل : " إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكما " .

أما ما قاله يوم حنين وهو راكب بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بزمامها :

أنا النبى لا كذب ** أنا ابن عبد المطلب

فلا يسمى شعراً ، لأن مثل هذا يقع فى الكلام المنثور ولا يسمى قائله شاعراً .

والخلاصة : أن الله تعالى أراد أن يحمى محمداً ﷺ من أقوال المغرضين المشركين ومن مفترياتهم وأباطيلهم فمنعه من قول الشعر حتى لا يكون لهم حجة أن يدعوا عليه أن القرآن من المفتريات التى يتقولها ، والأباطيل التى ينمقها ، وليس بوحى من عند ربه .

ومن هنا ، كان محمد ﷺ بريئاً من العيوب والآثام ، ومن مواطن النقد التى يمكن أن تكون ثغرة يدخل منها الحاقدون على الإسلام فحفظه الله ورعاه فى صغره ، وحياه بعناية فائقة جعلته سيد المرسلين .

المبحث الثانى

صفاته ﷺ الخِلقية والخُلقية

إن من تمام الإيمان أن نعلم الصورة الظاهرة لنبينا محمد ﷺ والصورة الباطنة له .

والواصفون له ﷺ لم يدركوه على حقيقته ، وإنما وصفوه بقدر ما أطاقوا .

عن أبى إسحاق قال : سأل رجل البراء : أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف ؟ قال : لا مثل القمر [١] .

وقال الإمام علىُّ — رضى الله عنه — فى آخر وصفه له : من رآه بديهة [٢] هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه [٣] .

ومن هنا نجد أن سمات الناس الخُلقية والعقلية ينبئ عنها أو تومئ إليها صفاتهم الجسمية ، فأولئك الشواذ فى تكوينهم النفسى أو

---

[١] أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب المناقب . باب : ما جاء فى صفة النبى ﷺ ٥٩٨/٥ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

[٢] بديهة : مفاجأة من غير روية أى أول وهلة .

[٣] الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض بن موسى ١٥٠/١ تحقيق محمد أمين قره وغيره . دار الفيحاء . الطبعة الثانية .

العقلى يبدو شذوذهم فى أجسامهم وذلك يتضح لأهل العلم ، والمتتبعين للمرضى من الشواذ .

كما أن اعتدال الجسم ، وتناسب أجزائه يدل فى الجملة على استقامة العقول والنفوس ، وأن المزاج النفسى يصحبه غالباً مزاج جسمى كامل متناسق فى تركيبه الظاهر والداخل .

ولقد وصف النبى ﷺ النبيين فى حديث المعراج بما يدل على كمالهم الجسمى . وهو كمال فيه جمال . لا يكون ما يسوغ النفرة منهم أبداً .

فقد روى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة – رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ليلة أسرى بى : رأيت موسى وإذا رَجُلٌ ضَرْبٌ [1] رَجِلٌ[2] كأنه من رجال شَنُوءَة [3] ، ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس [4] ، وأنا أشبه ولد إبراهيم به [5] .

---

[1] ضَرْبٌ : بفتح الراء وسكون الراء : أى نحيف .

[2] رَجِل : بفتح الراء وكسر الجيم : أى دهين الشعر مسترسل غير جعد .

[3] شنوءة : بفتح الشين ، وضم النون وهم حى من اليمن ينسبون إلى شنوءة وهو عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد قال الداودى : رجال الأزد معروفون بالطول .

[4] خرج من ديماس : يعنى الحمام .

[5] أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأنبياء ٢٣٩/٧ من الفتح .

وإن هذه الأوصاف لأولئك الأنبياء الثلاثة ، وهم من أولى العزم من الرسل ، تدل على كمال التناسق الجسمى فيهم مع اختلاف فى الأوصاف الجزئية . واتفاقهم فى أصل التنسيق ، وقد روى الدارقطنى من حديث أنس بن مالك خادم النبى ﷺ أن النبى ﷺ قال : " ما بعث الله تعالى نبيا إلا حسن الوجه حسن الصوت ، وكان نبيكم أحسنهم وجها وأحسنهم صوتاً " .

ولم يكن بدعاً من الأنبياء أن يكون كل ما عليه محمد ﷺ من الخلق والتكوين مسترعياً للأنظار ، هو جميل فى جسمه ، كما هو جميل فى خلقه . ولا شك أن ذلك التناسق الجسمى له أثره فى الدعوة ، والإستجابة لها إذ كان مصحوباً بإشراق روحى .

ولقد أكثر الواصفون لتكوين النبى ﷺ ، وجاء من طرق أنه كان فيه جمال يتلألأ وجهه إشراقاً ، ونختار من هذه الروايات حديث على ، وأنس بن مالك ، وأبى هريرة ، والبراء بن عازب ، وعائشة أم المؤمنين ، وابن أبى هالة ، وأبى جيحفة ، وجابر بن سمرة وأم معبد ، وابن عباس وغيرهم — رضى الله عنهم .

من أنه ﷺ كان :

أزهر [1] اللون ، أدعج [2] ، أنجل [3] ، أشكل [4] ، أهدب

---

[1] أزهر اللون : حسنه أو أبيض .

[2] أدعج : شديد سواد الحدقة .

[3] أنجل : واسع شق العين مع حسنها .

[4] أشكل : فى بياض عينه قليل حمرة .

الأشفار [1] أبلج [2] ، أزج [3] ، أقنى [4] ، أفلج [5] ، مدور الوجه [6] ، واسع الجبين [7]،كث اللحية تملأ صدره ، سواء البطن والصدر ، واسع الصدر[8] ، عظيم المنكبين [9] ، ضخم العظام ، عبل [10] العضدين والذراعين والأسافل ، رحب [11] الكفين والقدمين ، سائل [12]الأطراف ، أنور المتجرد [13] ، دقيق المسربة[14]، ربعة [15] القد ، ليس بالطويل البائن [16]، ولا القصير

---

[1] أهدب الأشفار : كثير شعر حروف أجفان عينيه .

[2] أبلج : مشرق الوجه .

[3] أزج : دقيق شعر الحاجبين طويلهما إلى مؤخر العين مع تقوس .

[4] أقنى : مرتفع قصبة الأنف مع احديداب يسير فيها ، والمشهور أنه ﷺ كان أشم ، والأشم ارتفاع قصبة الأنف مع استواء أعلاه وقد يجمع بينهما بأن ارتفاعها كان يسيرا جداً ، من رآه متأملاً عرفه أشم ومن لم يتأمله ظنه أقنى .

[5] أفلج : متباعد ما بين الثنايا .

[6] ولكن إلى الطول أقرب ، قاله القاضى عياض .

[7] الجبين : هو ما اكتنف الجبهة من يمين وشمال .

[8] حسا ومعنى .

[9] المنكب : مجموع عظم العضد والكتف .

[10] العبل : الضخم .

[11] الرحب : الواسع ، وهنا حسا ومعنى .

[12] سائل : تام .

[13] ما تجرد من بدنه أشرق من غيره .

[14] المسربة : خيط الشعر الذى بين الصدر والسرة .

[15] الربعة : المربوع .

[16] البائن : المفرط .

المتردد ، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ، ينسب إلـــى الطـــول إلا طاله ﷺ ، رَجِل [1] الشعر ، إذا افترّ ضاحكاً افتر [2] عـــن مثـــل سنا البرق ، وعن مثل حب الغمام ، إذا تكلم رُئى كالنور يخرج من ثناياه ، أحسن الناس عنقاً ، ليس بمُطهم [3]ولا مُكلثم [4] متماســـك البدن [5] ، ضرب اللحم [6] "[7] .

والأحاديث فى بسط صفته مشهورة كثيرة فلا نطول بسردها كفاية فى القصد إلى المطلوب .

وكما أن التناسق الجسمى والخَلقى له أثـــر كبـــير فـــى الدعـــوة والإستجابة لها ، فإن الخُلق الحسن أيضاً يؤثر فى الدعوة إلى الحق.

ولقد قال الله تعالى فى ثمرات الخلق المحمدى :﴿ **فبما رحمـــة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولـــك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكـــل على الله إن الله يحب المتوكلين** ﴾ [8] .

---

[1] رَجِل : ما بين الجعودة والسبوطة .

[2] افتر : أبدى أسنانه .

[3] المطهم : المدور الوجه / وقيل : هو السمين الفاحش ، وقيل : المنتفخ الوجه ، وقيل النحيف الجسم .

[4] المكلثم : المجتمع لحم وجهه .

[5] متماسك البدن : ليس برهل مسترخ لحمه .

[6] ضرب اللحم : خفيفه ولطيفه لا يابسه وكثيفة .

[7] أنظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ١٤٦/١ ـ ١٤٩ .

[8] سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

وقد اجتمعت فى رسول الله ﷺ مكارم الأخلاق وأعظمها .

قال تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [١] .

قيل : سمى عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه ، من كرم السجية ، ونزاهة القريحة ، والملكة الجميلة [٢] وعنه ﷺ قالت السيدة عائشة - رضى الله عنها : " إن خلقه كان القرآن " [٣] . فهو يأخذ بهديه ويتبع منهاجه من غير عوج ولا التواء .

ولهذا كان من أهداف بعثته ﷺ تهذيب الأخلاق . قال ﷺ: " إن الله بعثنى لأتمم مكارم الأخلاق " [٤] .

ولم تكن اخلاقه ﷺ باكتساب أو رياضة ، ولكن بجود إلهى وخصوصية ربانية ، فقد غرزت الأخلاق الحميدة فى جبلته ﷺ منذ صباه .

ومن أبرز صفاته ﷺ الخُلقية :

أولا : الحلم والعفو :

لقد هيأ الله تعالى محمدا ﷺ ليكون الهادى إلى الحق فوهبه الخلق الكامل والتى منها الحلم والعفو ، فلا يعادى ، ولا يصخب ، ولا يفحش فى قول أو عمل .

---

[١] سورة القلم الآية ٤ .

[٢] انظر البحر المحيط لأبى حيان ٢٣٧/١٠ .

[٣] رواه بتمامه البيهقى فى الدلائل .

[٤] رواه أحمد فى مسنده وكذلك البغوى فى شرح السنة .

ولقد كان ﷺ عفواً سمحا قبل البعثة فلم يعلم فى تاريخ حياته أنه شغل نفسه بأحقاد وأضغان الجاهلية وما كانت تبثه من عداوات، فالعفو والسماحة لا يسكنان إلا قلبا خالياً من الأحقاد والأضغان متجها دائماً إلى ما هيأه الله تعالى له ، من حمل الدعوة إلى الحق ، متفرغاً لها ، ليبلغ الرسالة على أكمل وجه .

ولا خفاء بما يؤثر من حلمه ، وإن كل حليم قد عرفت منه زلة، وحفظت عنه هفوة ، ولكنه ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً ، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً .

عن عائشة - رضى الله عنها قالت [1]:" ما خير رسول الله فى أمرين قط ، إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ؛ وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه ، إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى ، فينتقم الله بها .

ومن عظيم خبره فى العفو عفوه عن اليهودية التى سمته فى الشاة بعد اعترافها .

عن أنس بن مالك – رضى الله عنه - : أن يهودية أتت النبى ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها ، فجئ بها فقيل ألا نقتلها ؟ قال: لا"[2].

---

[1] أخرجه أبو داود فى سننه . كتاب الأدب . باب التجاوز فى الأمر ٢٥٠/٤ .

[2] أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الهبة . باب قبول الهبة من المشركين ١٥٩/٦ من الفتح .

أيضاً عن أنس بن مالك قال : " كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه رداء نجرانى غليظ الحاشية فأدركه أعرابى فجبذه بردائه جبذة شديدة نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته ثم قال يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك ثم أمر له بعطاء "[1] .

قال الإمام النووى [2] : " فى هذا الحديث احتمال الجاهلين، والإعراض عن مقابلتهم ودفع السيئة بالحسنة ، وإعطاء من يتألف قلبه ، والعفو عن مرتكب كبيرة لا حد فيها بجهله وإباحة الضحك عند الأمور التى يتعجب منها فى العادة ، وفيه كمال خلق رسول الله ﷺ وحلمه وصفحه الجميل " أ . هـ .

ولقد قال أنس بن مالك – رضى الله عنه – فى وصف الرسول ﷺ " لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا لعانا ولا سبابا . كان يقول عند المعتبة : ماله ترب جبينه ؟ " [3].

ومن هنا نرى حلمه ﷺ يسبق غضبه ولا تزيده شدة الجهل

---

[1] أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الزكاة . باب اعطاء المؤلفة ٧/١٤٦-١٤٧ شرح النووى وأبو داود فى سننه كتاب الأدب من رواية أبى هريرة بنحوه ٤/٢٤٧ .

[2] شرح النووى على صحيح مسلم ٧/١٤٧ .

[3] أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأدب . باب ما ينهى من السباب واللعن ١٣/٧٤ من الفتح .

إلا حلما .. والحديث عن حلمه وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأتى عليه ، وحسبك ما ذكرناه ، مما فى الصحيح والمصنفات الثابتة ، إلى ما بلغ متواتراً مبلغ اليقين ، من صبره على مقاساة قريش ، وأذى الجاهلية إلى أن أظفره الله عليهم وحكمه فيهم .

ثانيا : تواضعه ﷺ وزهده فى الدنيا وصبره على القوت الشديد:

لقد كان رسول الله ﷺ من أشد الناس تواضعاً وأعدمهم كبراً مع علو منصبه ورفعة رتبته .

وروى عن ابن عباس " أن الله عز وجل أرسل إلى نبيه ﷺ ملكا من الملائكة معه جبريل عليه السلام ، فقال الملك لرسول الله ﷺ إن الله يخيرك بين أن تكون عبداً نبياً وبين أن تكون ملكاً نبياً فالتفت نبى الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير له فأشار جبريل إلى رسول الله ﷺ أن تواضع فقال رسول الله ﷺ : بل أكون عبداً نبيا. قال فما أكل بعد تلك الكلمة طعاماً متكئاً حتى لقى ربه عز وجل"[1].

ولقد كان ﷺ يعين أهله فى مهنة البيت ، ولا يستنكف ، يغسل ثوبه ويحلب شاته ، ويرقع ثوبه ويخصف نعله ، ويخدم نفسه، ويعقل البعير ، ويأكل مع الخادم ويحمل بضاعته .

عن الأسود قال : سألت عائشة : ما كان النبى ﷺ يصنع فى أهله ؟ قالت : كان فى مهنة فإذا حضرت الصلاة قام إلى

---

[1] رواه البيهقى فى دلائل النبوة ٢٤٨/١ .

الصلاة[1].

وقد نهى رسول الله ﷺ أن يقوم له أحد تعظيماً له إذا خـــرج على الصحابة .

عن أبى أمامة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئـاً علـى عصا، فقمنا له ، فقال : " لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً " [2] .

وقد أخـرج البخارى [3] عن عمـر – رضى الله عنه – أن رسـول الله ﷺ قـال : " لا تطرونـى كمـا أطـرت النصـارى ابن مـريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله "

وعن أنس رضى الله عنه : أن امرأة كان فـى عقلـها شـئ جاءته، فقالت : إن لى إليك حاجة ، قال إجلسى يا أم فلان ، فى أى طرق المدينة شئت أجلس إليك حتى أقضى حاجتك " قال : فجلست، فجلس النبى ﷺ حتى فرغت من حاجتها .

أما بالنسبة لزهده ﷺ فى الدنيا فلم يكن حريصاً عليها طالباً لها بل كان زاهداً فيها .

ومما يدل على زهده ﷺ ما روى عن ابن عباس " أن عمر بن الخطاب

---

[1] أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأدب . باب كيف يكـون الرجـل فـى أهلـه ١٣/٧٠.

[2] أبو داود . كتاب الأدب . باب قيام الرجل ٤/ ٣٥٨ .

[3] أخرجه البخارى . كتاب الأنبياء ٧/٣٠٠ من الفتح .

حدثه فذكر الحديث فى اعتزال رسول الله ﷺ نساءه إلى أن قال : فدخلت على رسول الله ﷺ فى خزانته فإذا هو مضطجع على حصير فأدنى عليه إزاره وجلس ، وإذا الحصير قد أثر بجنبه وقلبت عينى فى خزانة رسول الله ﷺ فإذا ليس فيها شئ من الدنيا غير قبضتين أو قال قبضة من شعير وقبضة من قرظ [١] نحو الصاعين وإذا أفيق [٢] معلق أو أفيقان قال فابتدرت عيناى فقال رسول الله ﷺ ما يبليك [٣] يا ابن الخطاب ؟ قلت يا رسول الله ومالى لا أبكى وأنت صفوة الله عز وجل ورسوله وخيرته من خلقه وهذه خزانتك ، وهذه الأعاجم كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار وأنت هكذا . قال يا عمر : أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟ قلت : بلى يا رسول الله . فاحمد الله عز وجل [٤].

وروى عن علقمة عن عبد الله قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه ، فقلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء [٥] ، فقال : مالى وما للدنيا ، ما أنا للدنيا إلا كراكب استظل

---

[١] القرظ : شجر يُدبغ به ، وقيل : هو ورق السلم يدبغ به الأدم ، لسان العرب ٧/٤٥٤

[٢] أفيق : الأفيق هو الجلد الذى لم يدبغ . لسان العرب ١٠/٦ .

[٣] ما يبليك : أى ما يبكيك .

[٤] أخرجه البخارى فى صحيحه بنحوه كتاب اللباس ، باب ما كان النبى ﷺ يتجوز من اللباس والبسط ١٢/٤١٨ – ٤١٩ من الفتح ، ورواه البيهقى فى دلائل النبوه ١/٢٤٨-٢٤٩ .

[٥] وطاء : أى سطح ناعم ينام عليه .

تحت شجرة ثم راح وتركها [١].

وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت :" ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ "[٢].

وعن النعمان بن بشير قال : سمعت عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يخطب فذكر ما فتح على الناس فقال : " لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجدَ دَقَلا يملأ به بطنه" [٣]

وبذلك يضرب النبى ﷺ الأمثال فى الزهد الإيجابى ، وليس الزهد السلبى الذى هو زهد المحرومين ، بل زهده هو زهد القادرين الذين يتخذون أسباب الكسب الطيب ، ثم يزهدون فى ادخار المال والذهب والفضة . وبذلك سار عليه الصلاة والسلام على ما بعثه الله تعالى ، لا يتفاخر بالخيل المسومة والأنعام والحرث ، ولكنه ينفقها فى مصارفها من غير عبث ولا استعلاء ، ولا تكاثر .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الزهد ٥٨٨/٤، ٥٨٩ ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه البيهقى فى دلائل النبوة ٢٥١/١ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الزهد ١٠٦/١٨ بشرح النووى .

(٣) الدقل : هو بفتح الدال والقاف وهو تمر ردئ . والحديث أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الزهد ١٠٩/١٨ شرح النووى .

وإننا نجد زهده ﷺ يشتد كلما تمكن من المال ، كلما اتسع سلطانه ، وكلما كثرت تكليفاته ، لأنه يرى أن تحمل أعباء الرسالة وشدائدها ، إنما يكون بتربية النفس وحملها على ترك اللذائذ .

والروايات التي وردت في تواضعه ﷺ وزهده في الدنيا أكثر من أن تعد ولكن أردت أن أذكر بعضا منها لأبين أن هذه الصفات كانت طبعا فيه ﷺ وإعدادا من الله تعالى له لتحمل أعباء الرسالة ، وليكون قدوة لأقرانه ولمن يأتي من بعده ، وما كان يدعو أمته بذلك بلسان القول ، بل كان يدعو بلسان الفعل . فلسان الفعل في هذه الحال أجدى فإنه لا يصح أن تكون الدعوة إلى التقشف آتيه ممن يرفل في الحرير ، إذ تكون حاله مناقضة لمقاله ، فلا يسمع له قول، ولا يقبل منه كلام .

ثالثا : الرحمة :

لقد وصف رسول الله ﷺ : في القرآن الكريم بأنه رؤوف رحيم فقال عز من قائل : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ [1]، وقال تعالى:﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [2] .

وكان عليه الصلاة والسلام يعالج النفوس الشاردة بالرحمة التي تؤنس هذه النفوس وتقربها إلى الحق .

---

[1] سورة التوبة الآية ١٢٨ .

[2] سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

ويروى فى ذلك أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ، ثم قال : " آحسنت إليك " ؟ قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله ، فأرسل إليه ﷺ وزاده شيئاً ، ثم قال : " آحسنت إليك " ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة ، فقال له النبى ﷺ : " إنك قلت ما قلت ، وفى نفس أصحابى من ذلك شئ ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى ، حتى يذهب ما فى صدورهم عليك " قال : نعم فلما كان الغد ، أو العشى ، جاء ، فقال ﷺ : " إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى . أكذلك ؟ ، قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال النبى ﷺ : " مثلى ومثل هذا الرجل له ناقة شردت عليه ، فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحبها : خلو بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها ، حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها واستوى عليها . وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار" [١] .

إن ذلك الحديث ينبئ عن حكمة الدعوة والإرشاد المصحوبة بالرأفة والرحمة فإنها تهدى إلى الحق ، وتقرب النفوس الشاردة .

---

[١] أنظر الشفا فى حقوق المصطفى ١ /٢٥٢ ، ٢٥٣ .

وفى ذلك كمال التبليغ للرسالة الإلهية ، وتعليم الراعى كيف يسوق الرعية ، ويأخذها إلى موطن الحق ، وحمايته .

وتتجلى الرحمة ودواعيها ، والحرص على الواجب والعدل فى أمر زوج ابنته أبى العاص بن الربيع بن عبد العزى . زوج ابنته زينب – رضى الله عنها – .. وكان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله ﷺ حين أسلمت وبين أبى العاص ، إلا أن رسول الله ﷺ كان لا يقدر أن يفرق بينهما ، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركة ، حتى هاجر رسول الله ﷺ فلما سارت قريش إلى بدر سار فيهم أبو العاص بن الربيع ، فأصيب فى الأسارى يوم بدر ، فكان بالمدينة عند رسول الله ﷺ [1] .

قال ابن إسحاق : " وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه عباد ، عن عائشة ، قالت : لما بعث أهل مكة فى فداء أسرائهم ، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها ؛ قالت : فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، وقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها ، فافعلوا ؛ فقالوا : نعم ، يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذى لها ، وكان رسول الله أخذ عليه ،

---

[1] سيرة ابن هشام ٣٠٦/٢ – ٣٠٧ بتصرف .

أو وعده ، أن يخلى سبيل زينب إليه ، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثه ورجلاً من الأنصار ، فقال :" كونا ببطن ياجج [١]حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها " [٢] .

فإن الرحمة والعدل يتجلبان فى أمر زوج ابنته ، فإنه كان أسيراً فى غزوة ، فلم يعفه من واجب الفداء ، ورفض أن يفك أساره إلا بفداء ، فأرسلت زوجه زينب بنت محمد عليه الصلاة والسلام فترسل إلى أبيها بحلية عندها كانت أهدتها إليها أمها فى عرسها أمها خديجة أعز النساء على محمد عليه الصلاة والسلام ، عندئذ التقت أمور كلها تؤثر فى القلب الرحيم والرجل العادل ، ففيه الرحمة والشفقة على ابنته ، وفيه الذكرى ، لأوفى النساء له ، وفيه ما يجب عليه من عدل غير مفرق بين أسير وأسير .

فهنا التكليف الشاق ، والإحساس القوى ، فمحمد عليه الصلاة والسلام يبكى من فرط ما جاش فى نفسه من ذكرى ، وما يدعوه الواجب ، فيجمع أصحاب الحق فى الفداء ، وهم الغزاة المجاهدون ، ويعرض عليهم النظر فى واجبة ، والرفق بإحساسه ، وما هو بالذى يفرض عليهم الرأى .

---

[١] ياجج : موضع على ثمانية أميال من مكة .

[٢] سيرة ابن هشام ٣٠٧/٢ أيضاً الحديث أخرجه أبو داود فى سننه كتاب الجهاد . باب فداء الأسير بالمال ٣/ ٦٢ .

فيكون الرأى من أصحاب الحق فيه أن يعيدوا الحلية إلى صاحبتها أو لا يردوها .

هكذا كان رسول الله ﷺ يعالج النفوس الشاردة بالرحمة والرفق، ودعى لمن ولى أمر المسلمين فرفق بهم ، وعلى من ولى أمر المسلمين فشق عليهم .

قال رسول الله ﷺ :" اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشفق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به " [1] .

رابعا : صدقه وأمانته وعفته ﷺ :

لقد عرف ﷺ بالصدق من منذ أن وعى إلى أن قبضه الله تعالى إليه ، فما عرفت عليه كذبة قط فى حياته كلها ﷺ .

وكان صدقه ﷺ ليس كصدق غيره من أهل مكة المكرمة ومن حولها ، ولكنه صدق من أعده الله تعالى ليكون رسولا للعالمين .

وأما أمانته فحسبنا أن نعلم أن ذلك أمر رأته قريش كلها ، وآمنت به ، حتى سمى بالأمين ، كان يعرف بالأمانة ، وينادى بالأمين وقد بينا ذلك مفصلا . لما اختلفت قريش وتحاذبت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر الأسود فى مكانه ، وقولهم فاليحكم بيننا أول داخل عليهم من باب هذا المسجد ، فإذا بالنبى ﷺ داخل وذلك

---

[1] أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الإمارة ، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق ٢١٢/١٢، ٢١٣ شرح النووى .

قبل نبوته ، فلما رأوه قالوا : هذا محمد . هذا الأمين ، قد رضيناه به .

فالأمانة والصدق صنوان متلازمان ، فلا أمانة من غير صدق، والصدق يقتضى كل الفضائل .

فقد اشتهر عليه الصلاة والسلام بلقب الصادق الأمين حتى أن السيدة خديجة – رضى الله عنها – لم تتزوج برسول ﷺ إلا بعد ما سمعت عن صدقه وأمانته ولذلك قالت له عندما نزل عليه الوحى لأول مرة وذهب إليها يرتجف قائلا لها " .. .. لقد خشيت على نفسى ، فأخبرها الخبر . قالت خديجة : أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا ، فوالله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق.."[١].

ومن هنا فقد أجمعت قريش كلها على صدقه ﷺ المسلم منهم والذى ظل على كفره .

فمثال من شهد له بالصدق ممن أسلموا أبو سفيان بن حرب فقد دعاه هرقل إلى مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعا بترجمانه فقال هرقل ملك الروم :" أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، فقال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسبا ، فقال : أدنوه منى

---

[١] هذا طرف من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب التفسير . باب تفسير سورة أقرأ باسم ربك .. ١٠/٣٤٤- ٣٤٨ من الفتح .

وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم إني سائل عن هذا الرجل ، فإن كذبني فكذبوه .. (ثم سأله عدة أسئلة منها) قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قاله ؟ قلت : لا .. .. ، فقال هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .. .. فقال هرقل : إن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمىَّ هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أنى اخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .. .. " [1] .

أيضا فقد شهد له بالصدق أعداؤه من الكفار. قيل: " إن الأخنس [2] بن شريق لقى أبا جهل [3] يوم بدر فقال له : يا أبا الحكم : ليس هناك غيرى وغيرك يسمع كلامنا ، تخبرني عن محمد ، صادق هو أم كاذب ؟

فقال أبو جهل : والله إن محمدا لصادق . وما كذب محمد قط"[4] .

وأعظم مظهر من مظاهر صدقه ﷺ هو تبليغ كل ما أوحى

---

[1] أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب بدء الوحى . باب كيف كان الوحى إلى رسول الله ﷺ ١/٣٥- ٤١ من الفتح .

[2] الأخنس بن شريق : هو أبى بن شريق بن عمرو الثقفى ، سمى بالأخنس لأنه رجع ببنى زهرة يوم بدر ثم أسلم ، فكان من المؤلفة وشهد حنينا ومات فى أول خلافة عمر .

[3] أبو جهل : هو عدو الله من أكبر المؤذين لرسول الله ﷺ قتل يوم بدر .

[4] الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/٢٧٠ .

إليه من ربه ، إذ لو لم يكن صادقا لكتم بعض مما فيه عتاب لــــه .
مثل : قوله تعالى : ﴿ **عبس وتولى** ﴾ [1] .
وقوله : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾ [2] .
وقوله : ﴿ **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشـــى النـــاس والله أحق أن تخشاه** ﴾ [3] .
وقوله تعالى:﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه بـاليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾[4] .

أما عن عفته ﷺ فكانت صيانة من الله تعالى – صانه عـن أن يلهو ، وعن الأهواء والشهوات المنحرفة ، بل صانه عن مقدماتـــها حتى عن اللهو البرئ .

وقد ذكرنا من قبل كيف انساق وهو غلام ليحضر عرسا فيـــه لهو ، فإنه عندما ذهب إليه ضرب الله سبحانه وتعالى علـــى ذاتـــه بنعاس أصابه ، وما استيقظ من نعاسه حتى أيقظته الشـــمس فـــى ضحاها .

هذا وقد يقول قائل : إنك فى سبيل بيان صفاته الكريمة قبـــل البعثة التى هـــيأته وأعدته ليكون المبعوث رحمة للعالمين ، ولتعينه

---

[1] سورة عبس الآية ١ .

[2] سورة التوبة الآية ٤٣ .

[3] سورة الأحزاب الآية : ٣٧ .

[4] سورة الحاقة الآيات ٤٤- ٤٧ .

على تحمل أعباء الرسالة .

ونقول فى الإجابة عن ذلك : " أننا استعنا بالأخبار التى وردت عن النبى ﷺ بعد الرسالة لأنها وضحت صفاته قبل الرسالة، ولأنها ذكرها من شاهد وعاين من بعد الرسالة ، وهذه الصفات التى عاينها الذين آمنوا بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، صفات ذاتيه ، لم تجئ بالرسالة ، ولكنها كانت قائمة بذاته الطاهرة من قبلها ، فلم يكن وصفه الجسدى حادثا بعد الرسالة ، ولكنه من قبلها، واستمر بعدها ، وما كان ما اتصف به من الصدق والأمانة والعفه، والحلم والعفو ، بأخلاق عرضت له ، ولكنها كانت ككل الملكات الذاتية لا تكون عارضة ، ولكن تكون مستكنة تامة ، وأن أخبار النبى عليه الصلاة والسلام ما كانت لتقوم عليها البينات النيرة الواضحة قبل الرسالة ، وهو لم يكن له أصحاب يتبعون سيرته ، ويدونون أخلاقه ، ويهتمون بما كان عليه ، وما كان من الممكن أن يتكشف للناس أمر هذه السجايا إلا بعد أن يختلط بهم ، ويتقدم للدعوة إلى ربه ، ويلتقى بالقبائل ، ويوجههم ويهديهم ويصبر للمخالفين ، فالأخبار التى استشهدنا بها لإثبات صفاته ، وما كان عليه من خلق ذاتى ، ما كانت الرسالة منشئة لها ، ولكنها كاشفة عنها معرفة لها ، وهى ذاتية قد هيأته لأن يكون المبعوث رحمة للعالمين .

المبحث الثالث

حاجة العالم إلى بعثته ﷺ

إذا نظرنا إلى شئون العالم قبيل بعثته ﷺ وجدناها تقتضى بعثته ، فقد كانت أسوأ ما تكون ، تتحكم فيها الفوضى ويسودها الفساد ويحيك عليها الظلام دينيا واجتماعيا وخلقيا وسياسيا .

فمن ناحية فساد العقيدة :

نجد أن هناك ألوانا من الضياع الدينى .

فلقد انتشرت الوثنية وعبادة الأصنام فى شبه الجزيرة العربية وعبادة الشمس والكواكب فى بلاد سبأ وبابل وغيرهما ، والمجوسية فى بلاد فارس وما جاورها ، وعبادة الحيوان ولا سيما البقرة فى بلاد الهند .

كما كانت هناك اليهودية والنصرانية المحرفة والمبدلة ، فقد كان اليهود أكثر الناس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقدا على مخالفى ملتهم ويزعمون أن عزيرا ابن الله .

أما النصارى فكانوا فرقا . ففرقة تقول : الله ثالث ثلاثة قال تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ..** ﴾ [١] ،

---

[١] سورة المائدة الآية ٧٣ .

وفرقة تقول : إن عيسى ابن الله قال تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ..** ﴾ [١] ، وفرقة ثالثة تدعى ألوهية عيسى وأمه مريم قال تعالى : ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله * قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بعلم إن كنت قلته فقد علمته..** ﴾[٢] .

أما العرب فكانوا يعتقدون أن الأصنام تشفع لهم عند ربهم فكان لكل قبيلة أو ناحية صنم خاص ، بل كان لكل بيت صنم خصوصى .

قال الكلبى : كان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا [٣].

روى البخارى عن أبى رجاء العطاردى قال : كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو أخير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجرا ، جمعنا جثوة [٤] من تراب ، ثم جئنا بالشاة نحلبها

---

[١] سورة المائدة الآية ٧٢ .

[٢] سورة آل عمران الآية ١١٦ .

[٣] أنظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن على الحسينى الندوى ص ٥٤

[٤] جُثْوَة : هو القطعة من التراب تجمع فتصير كوما ، والمراد بحلبهم الشاة على التراب هو أنهم يتقربون إليه بالتصدق عليه بذلك اللبن .

عليه ثم طفنا به [1] .

وزعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى ، وتشفع لهم عند ربهم .

قال تعالى : ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ [2] .

وقال جل ذكره : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله** ﴾ [3] .

أما بالنسبة للأحوال الخلقية والاجتماعية

فقد ساد الفساد والإنحلال ، ولم تكن الأوضاع الخلقية والاجتماعية بأحسن حالا من سابقتهما ، فكان شرب الخمر واسع الشيوع شديد الرسوخ فيهم ، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائما بالإضافة إلى الانهماك فى لعب الميسر والقمار .

قال قتادة : كان الرجل فى الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد حزينا سليبا ينظر إلى ماله فى يد غيره فكانت تورث بينهم عداوة وبغضا [4] .

وكان أهل الحجاز ، العرب واليهود ، يتعاطون الربا ، وكان

---

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب المغازى . باب وفد بنى حنيفة ٩/١٥٣ من الفتح .

(2) سورة الزمر الآية ٣ .

(3) سورة يونس الآية ١٨ .

(4) تفسير الطبرى ٧/٢٣ .

فاشيا فيهم ، قال الطبرى : كان الربا فى الجاهلية فى التضعيف وفى السنين ، يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له : تقضينى أو تزيدنى ؟ فإن كان عنده شئ يقضيه قضى وإلا حوله إلى السن التى فوق ذلك ، إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون فى السنة الثانية ، ثم جزعة ثم رباعيا هكذا إلى فوق ، وفى العين يأتيه ، فإن لم يكن عنده أضعفه فى العام القابل ، فإن لم يكن عنده أضعفه أيضاً فتكون مائة فيجعلها إلى القابل مائتين ، فإذا لم يكن عنده جعلها أربعمائة يضعفها له كل سنة أو يقضيه [١].

ولم يكن الزنى نادراً ، وكان غير مستنكر ، فكان من العادات أن يتخذ الرجل خليلات ويتخذ النساء أخلاء بدون عقد ، وكانوا قد يكرهون بعض النساء على الزنى ، قال ابن عباس : كانوا فى الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنى يأخذون أجورهن [٢] .

قالت عائشة – رضى الله عنها - : " إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليَّته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها . ونكاح آخر : كان الرجل يقول لإمرأته إذا طهرت من طمسها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها

---

[١] تفسير الطبرى ٥٩/٤ .

[٢] المرجع السابق ١٠٤/١٨ .

إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الإستبضاع . ونكاح آخر : يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومر ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان ، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل . ونكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها ، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما لم أرادهن دخل عليهن،فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة [1] ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطته [2] به ودعى ابنه ، لا يمتنع من ذلك [3] .

وفى مجال الأسرة :

كان تعدد الزوجات أمرا شائعا شيوعا لا حد له فكان الرجل من قريش أو من غيرها يتزوج ما يشاء من النساء دون أن يتقيد بعدد ، ومن هنا كان الطلاق كثيرا تابعا لهوى الرجل ، فله أن

---

[1] القافة : جمع قائف وهو الذى يعرف شبه الولد بالوالد بالآثار الخفية .

[2] فالتاط : أى استلحقته به ، وأصل اللواط بفتح اللام اللصوق .

[3] أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب النكاح . باب من قال لا نكاح إلا بولى ١١/٨٨-٩٠ من الفتح .

يطلق ، وأن يراجع بدون حصر لعدد الطلقات .

وكانت المرأة فى المجتمع الجاهلى تؤكل حقوقها ، وتحرم إرثها، وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجا ترضاه وتورث كما يورث المتاع أو الدابة ، عن ابن عباس قال :"كان الرجل إذا مات أبوه فهو أحق بامرأته ، إن شاء أمسكها أو يحبسها حتى تفتدى بصداقها أو تموت فيذهب بمالها [(١)] .

وقد بلغت كراهة البنات إلى حد الوأد ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى : ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون** ﴾ [(٢)] وبقوله : ﴿ **وإذا المؤدة سئلت * بأى ذنب قتلت** ﴾ [(٣)] ، وكانت مذاهب العرب مختلفة فى وأد البنات ، فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن ، ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق وخوف الفقر .

ويقول الدكتور/ محمد الطيب النجار : " والواقع أن هذه العادة لم تكن منتشرة بين العرب ، ولكنها كانت موجودة فى بنى تميم وبنى أسد ، وهما قبيلتان اثنتان من ثلاثمائة وستين قبيلة ، ومعنى

---

(١) تفسير الطبرى ٣٠٨/٤ .

(٢) سورة النحل الآيتان ٥٨، ٥٩ .

(٣) سورة التكوير الآيتان ٨، ٩ .

ذلك أن الأكثرية الساحقة من العرب لم تكن فيها هذه العادة القبيحة.

ويضيف قائلا : والقرآن حينما يذكر هذه العادة ، فإنما يقصد هذا العدد القليل من القبائل وهو فى نفس الوقت يحذر سائر القبائل الأخرى ، حتى لا تتأثر بها وتجاريها فى هذا الشر والفساد "[١] .

وعن الأحوال الاجتماعية :

فهنالك كان أشراف وسوقه : أشراف يعتقدون أنهم من طينة أخرى غير طينة البشر ، وسوقه يضن عليهم بأدنى حقوق الإنسان وسادة وعبيد : سادة يتمتعون بكل خيرات هذه الأرض وطيباتها ، وعبيد يعاملون معاملة الحيوان ، وليس لهم من كدهم وتعبهم إلا العرق ، وما تجود به نفوس السادة عليهم من فتات الموائد [٢] .

وهنالك اعتزاز لا حد له بالأنساب والأحساب ، والتفاخر بهما، وإضاعة الوقت فى الإشتغال بذلك حتى بلغ من العرب أنهم كانوا حين يفرغون من موسم الحج يعقدون الندوات لذكر الآباء ، والأحساب [٣].

وخلاصة القول أنه كانت هناك فوارق طبقية ، وعصبيات جنسية ، ونسبية ، ولونية ، ولغوية وسواء فى ذلك البيئات

---

[١] القول المبين فى سيرة سيد المرسلين ص ٤٧، ٤٨ .

[٢] السيرة النبوية : محمد أبو زهرة ص ٢٤٨ .

[٣] المرجع السابق ص ٢٤٩ .

المتحضرة أم المتبدية .

أما عن الأحوال السياسية :

فقد كان أهل الجزيرة العربية يعيشون عيشة البرابرة ، فكان التعدى والإغارة على الغير أمرا يكاد يكون سائرا بين القبائل ، فتسطوا القبيلة الكثيرة العدد والعدة على من هى أضعف وأقل منها، فتسترق نساءها وأطفالها ، وتنهب أموالها ، وتستذل رجالها ، وكثيرا ما كانت تثور الحرب بين القبائل لأتفه الأسباب من أجل ناقة أو سباق فرس، فتستمر سنوات تقترب من الأربعين مثل حرب البسوس [1] .

وهكذا كان العالم البشرى مضطربا لا أمان فيه ، ولا سلام ، وشمل الفساد جميع أحواله ونواحية لدرجة تستحيل الحياة المطمئنة بين الناس ، ولم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة ، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء .

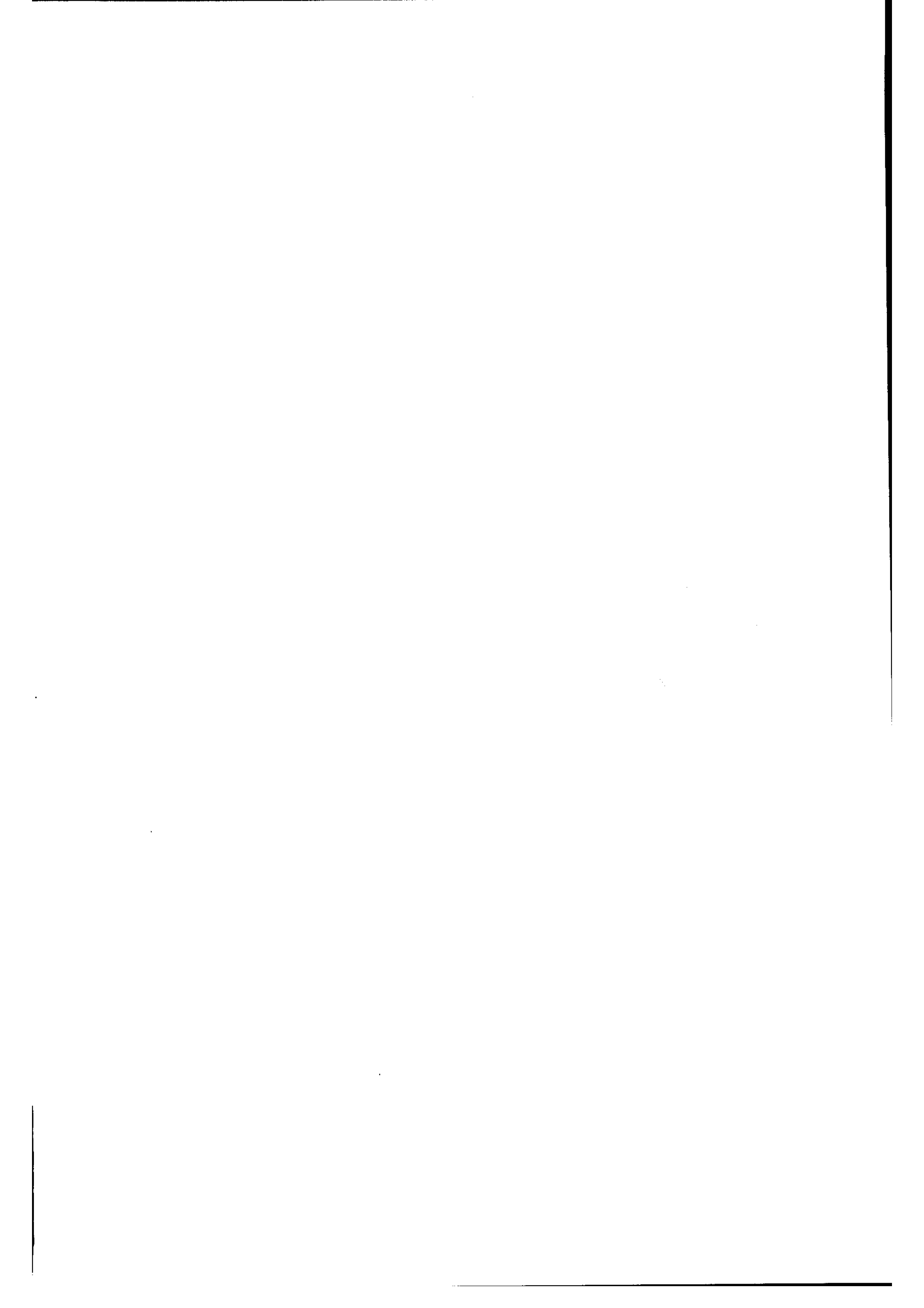
لذلك كانت حاجة المجتمع البشرى ملحة إلى الرسالة لتبعث فيه حياة الإستقرار والطمأنينة والإستقامة ، وليجمعهم على إله واحد يتساوى الجميع فى مثولهم بين يديه بدون تمييز طبقى يكون الفارق فيه كثرة المال أو بياض اللون أو شهرة القبيلة ، وإنما الفارق فيه زيادة التقوى والإخلاص فى عبادة الله .

---

(1) راجع السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة للدكتور/ محمد أبو شهبه ص ٢٥٠ بتصرف. دار الطباعة المحمدية ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠ م .

ولا شك أن الرسول الذى يرسله الله إلى هذا المجتمع فى ظـل عقائده الفاسدة وأخلاقه الممزقة وعاداته المتخلفة وتعصبه للأصنام، لا بد وأن يكون على جانب كبير من الإعداد ، سواء مـن ناحيـة خلقته وصورته ، أو من ناحية خلقه وعبادته وتربيته الروحية .

****



الفصل الثانى

البشارة بالنبى ﷺ فى الكتب السماوية
وشهادة بعض من كان لهم علم بالكتب السماوية
بأنه النبى المنتظر

ويشتمل على :

تمهيـــــد وأربعة مباحث

المبحث الأول : نصوص من القرآن الكريم تبشر بنبـــــــوة محمد ﷺ .

المبحث الثانى : نصوص من التوراة .

المبحث الثالث : نصوص من الأناجيل .

المبحث الرابع : شهادة من كان لهم علم بـــالكتب الســماوية بأنه النبى المنتظر .

تمهيد :

الرسل جميعا إخوة لعلات [١] تجمعهم عقيدة واحـــدة ، وديـــن واحد ، والأديان السماوية كلها تتفق فى الأصول ، وإن اختلفت فـــى الشرائع والفروع ، قال عز شأنه :﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا * والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيـــم وموســـى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾[٢] .

وقال : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾[٣] .

فالآية الأولى فى الأصول التى لا تختلف اختلاف العصـــور والأزمان ، والثانية فى الفروع التى تتغير بتغير الأزمنة والأحوال.

وقد أخذ الله تعـــالى العهد على الأنبياء أن يكونوا أشد اتباعا للحق إذا ظهر ، وإذا جاءهم رسول الله مصدق لما معهم أن يؤمنوا به ولا يكذبوه . قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثـــاق النبييـــن لمـــا أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصـــدق لمـــا معكـــم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكـــم إصـــرى قالوا أقررنا * قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ [٤] .

---

[١] أولاد العلات الذين أبوهم واحد ، وأمهاتهم شتى وفى صحيح البخارى عن النبـــى ﷺ قال : نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد .

[٢] سورة الشورى الآية ١٣ .

[٣] سورة المائدة الآية ٤٨ .

[٤] سورة آل عمران الآية ٨١ .

المبحث الأول
نصوص من القرآن الكريم
تبشر بنبوة محمد ﷺ

إن القرآن الكريم هو أصدق كتاب - حيث لم تصل إليـــه يــد التغيير والتحريف - يتحدث عن بعض البشائر مشيراً إلى ما جـــاء فى التوراة والإنجيل عن محمد ﷺ وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبـــا عندهـــم فـــى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم * فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النـــور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾ [1] .

وقال تعالى مقيماً الحجة على النصارى الذين جحدوا رســـالة خاتم الأنبياء : ﴿ **وإذا قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنـــى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة والإنجيل ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد * فلما جاءهم بالبينات قـــالوا هذا سحر مبين** ﴾ [2] .

---

[1] سورة الأعراف الآيتان ١٥٦ - ١٥٧ .

[2] سورة الصف الآية ٦ .

وعلى الرغم من انكار اليهود والنصارى لنبوة النبى ﷺ وتحريفهم للتوراة والإنجيل ولا سيما ما يتصل بنبوته ﷺ إلا أننا نجد البشارات الكثيرة فى التوراة والإنجيل .

المبحث الثانى

نصوص من التوراة

ففى التوراة وردت بشارات على لسان موسى عليه السلام .

ففى البشارة الأولى : (فى الباب الثامن عشـــر مـــن ســـفر الاستثناء هكذا : .. .. وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتـــهم وأجعل كلامى فى فمه ، ويكلمهم بكل شئ آمره به .. ومن لم يطـع كلامه الذى يتكلم به بإسمى فأنا أكون المنتقم .. ..) .

وهذه البشارة ليست بشارة يوسع عليه السلام كما يزعـــم الآن أحبار اليهود ولا بشارة عيسى عليه الســـلام كمـــا زعـــم علمـــاء بروتستنت بل هى بشارة محمد ﷺ للوجوه التاليه [١]:

الوجه الأول : أنه وقع فى هذه البشارة لفظ " مثلـــك " ، ويوشـــع وعيسى عليهما السلام لا يصح أن يكونا مثـــل موســـى أمـــا أولا فلأنهما من بنى إسرائيل مثل موسى كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء وهى هكذا : (ولم يقم بعد ذلك فى بنى إسرائيل مثل موسى يوفه الرب وجها لوجه) فإن قام

---

[١] الوجه الأول ، والثانى والثالث والخامس نقلا من كتاب : الرسول ﷺ سعيد حـــوى ص ٤٦٤ –٤٦٦ باختصار . دار السلام للطباعة والنشر الطبعة : الثانيـــة ١٤١٠ هـــ ١٩٩٠ م .

أحد مثل موسى بعده من بنى إسرائيل يلزم تكذيب هذا القول .

الوجه الثانى : أنه وقع فى هذه البشارة لفظ " سوف أقيم " ويوشع عليه السلام كان حاضرا عند موسى عليه السلام داخلا فى بنى إسرائيل نبيا فى هذا الوقت فكيف يصدق عليه هذا اللفظ .

الوجه الثالث : أنه وقع فى هذه البشارة لفظ " أجعل كلامى فى فمه"وهو إشارة إلى أن ذلك النبى ينزل عليه الكتاب ، وإلى أنه يكون أميا حافظا للكلام ، وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام لانتفاء كلا الأمرين فيه .

الوجه الرابع : أنه وقع فى هذه البشارة " ويكلمهم بكل شئ آمره به" وأى نبى من قبل الله يتصف بهذه الصفة وعلى ذلك فهذا الوصف منطبق على نبى الإسلام وعيسى - عليهما السلام - وانطباقه على نبى الإسلام محمد ﷺ أحق وأولى لأن عيسى – عليه السلام – من بنى إسرائيل وهو وغيره من أنبياء بنى إسرائيل لا يحتاجون إلى هذه التزكية ، وتلك الشهادة لأن أى نبى منهم إذا جاء على وفق التوراة فإنها تشهد بصدقه ، وإذا جاء مخالفا لها فإن التوراة تبيح لليهود أن يرفضوه [١].

الوجه الخامس : أنه وقع فى هذه البشارة لفظ " ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به فأنا أكون المنتقم من ذلك" فهذا الكلام لما ذكر لتعظيم

---

[١] البشارة بنبى الإسلام فى التوراة والإنجيل – رسالة دكتوراة مطبوعة د. أحمد حجازى السقا ٢٤١/١ دار الجيل – بيروت ط الأولى ١٤٠٩ هـ – ١٩٩٨ م .

هذا النبى المبشر به فلا بد أن يمتاز ذلك المبشر به بهذا الأمر عن غيره من الأنبياء .. .. فظهر منه أن هذا النبى يكون مأمورا من جانب الله بالإنتقام من منكره فلا يصدق على عيسى - عليه السلام- لأن شريعته خاليه من أحكام الحدود والقصاص والتعزير والجهاد .

وهذا واضح أن المراد به نبينا محمد ﷺ ، كما لا يذكر أن أحدا من الأنبياء الذين جاءوا من بعد موسى فى تعاقب مستمر ، حتى ظهور عيسى من أدعى أنه النبى الموعود فى هذه النبوأة ، ولا يمكن أن يحمل على أحد من خلفائه من أنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا لتنفيذ شريعته ؛ لأنهم ليس فيهم أحد مثله .

البشارة الثانية : فى الباب الثالث والثلاثين من سفر الاستثناء فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (وقال جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار فى يمينه سنة من نار) فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام ، وإشراقه من ساعير وإعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام ، واستعلائه من جبل فاران إنزاله القرآن لأن فاران جبل من جبال مكة ، فى الباب الحادى والعشرين من سفر التكوين فى حال إسماعيل عليه السلام هكذا (وكان الله معه ونما وسكن فى البرية وصار شابا يرعى بالسهام . وسكن برية

فـاران) ولا شـك أن إسمـاعيل عليـه السـلام كـانت سكونتـه بمكة [1] .

وجاء فى التوراة أخبار عن النبى محمد ﷺ وأوصاف تؤيد صدقه فى نبوته ، وهى دلائل قوية لإقامة الحجة عليهم . فقد روى عن ثعلبة بن هلال وكان من أحبار اليهود ، حينما سأله عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وقال له : أخبرنى بصفات النبى ﷺ فى التوراة .

فقال : إن صفته فى توراة بنى هارون التى لم تغير ولم تبدل هى : " أحمد من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، وهو آخر الأنبياء ، وهو النبى العربى الذى يأتى بدين إبراهيم الحنيف ، معه صلاة لو كانت فى قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان ، ولو كانت فى عاد ما أهلكوا بالريح ، ولو كانت فى ثمود ما أهلكوا بالصيحة .

يولد بمكة ، وهو أمى لا يكتب ولا يقرأ المكتوب .

وهو الحماد يحمد الله فى الشدة والرخاء ، صاحبه من الملائكة: جبريل يلقى من قومه أذى شديدا ، ثم تكون له الدولة عليهم ، فيحصدهم حصيدا ، تكون الواقعات بيثرب منها عليه ومنه عليها ، ثم له العاقبة ، معه قوم هم أسرع إلى الموت من الماء على رأس الجبل إلى أسفله ، صدورهم أناجيلهم ، وقرباتهم دماؤهم ، ليوث النهار ، رهبان الليل . وهو يرعب العدو مسيرة شهر ، يباشر القتال بنفسه ، ثم يخرج ويحكم، لا حرس ولا حجاب ، الله يحرسه " [1] .

---

[1] الرسول ﷺ سعيد حوى ص ٤٦٨ .

[1] القول المبين فى سيرة سيد المرسلين د. محمد الطيب النجار ص ٧١ - ٧٢ .

المبحث الثالث

نصوص من الأناجيل

وكذلك بشر الإنجيل بالنبى ﷺ وهذه الأناجيل الموجودة اليوم وإن كانت محرفة ، إلا أنها قد بقى فيها ما يدل على البشارة بالنبى ﷺ .

" **ففى انجيل يوحنا** ما هو بشارة بذلك عند من أنصف وسلك الصراط السوى ، وما تعسف ففى الفصل الخامس عشر منه قال يسوع المسيح : إن البار قليط روح الحق الذى يرسله أبى يعلمكم كل شئ ، وقال يوحنا أيضا : قال المسيح : من يحبنى يحفظ كلمتى وأبى يحبه وإليه يأتى وعنده يتخذ المنزلة كلمتكم بهذا لأنى لست عندكم بمقيم ، والبار قليط روح القدس الذى يرسله أبى هو يعلمكم كل شئ وهو يذكركم كل ما قلت لكم أستودعكم سلامى لا تقلق قلوبكم ولا تجزع فإنى منطلق وعائد إليكم لو كنتم تحبونى كنتم تفرحون بمضيى إلى الأب ، وقال أيضا : إن خيرا لكم أن أنطلق لأبى لأنى إن لم أذهب لم يأتكم البار قليط فإذا انطلقت أرسلته إليكم فإذا جاء فهو يوبخ العالم على الخطيئة وإن لى كلاما كثيرا أريد قوله ولكنكم لا تستطيعون حمله لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما

يسمع ويخبركم بكل ما يأتى ويعرفكم جميع ما للأب ، وقال أيضا : إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم بار قليطا آخر يثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذى لم يطق العالم أن يقبلوه لأنهم لم يعرفوه ولست أدعكم أيتاما لأنى سآتيكم من قريب " [١] .

والبار قليط لفظ يؤذن بالحمد ، وتعين إرادته ﷺ من كلامه عليه السلام مما لا غبار عليه لمن كشف الله تعالى غشاوة التعصب عن عينيه [٢].

ومما يدل على صحة تفسير الإمام الألوسى للفظ " البار قليط " بالحمد ، فقد ورد عن المستشرق " نلينو" - الحاصل على شهادة الدكتوراه فى آداب اللغة اليونانية ، وكان يدرس فى الجامعة المصرية القديمة عندما سأله المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار — عن معنى " البار قليط " فقال : إن القسيس يقولون : إن هذه الكلمة معناها المعزى ، فقال الشيخ عبد الوهاب : أنا أسأل الدكتور "نلينو" الحاصل على الدكتوراه فى الآداب اليونانية القديمة ، ولا أسأل قسيسا !!

فقال نلينو : معناها الذى له حمد كثير ، فقال له : هل ذلك يوافق

---

[١] روح المعانى للألوسى ٢٨ /٨٧ .

[٢] نفس المراجع السابق .

أفعل التفضيل من حمد ؟ فقال : نعم [1] .

" أيضا فإن كلمة برقليطوس تعنى من الناحية اللغوية البحتة : " الأمجد والأشهر والمستحق للمديح " ، وهو أسم مركب ذى مقطعين : الأول (Peri) والثانى (Kleitos) مشتق من التمجيد أو الثناء ويكتب (Periqleitos) أو (Periqlytos) مما يعنى تماما أسم أحمد باللغة العربية أى أكثر ثناء وحمدا " [2] .

" ويقابل معنى لفظ البار قليط ما جاء فى القرآن الكريم من إعلان عيسى عليه السلام ﴿ **مبشرا برسول يأتى من بعدى أسمه أحمد** ﴾ [3] ، وهذا من أقوى البراهين على نبوة محمد وعلى أن القرآن تنزيل إلهى فعلا إذ لم يكن فى وسع محمد أن يعرف أن كلمة البار قليط كانت تعنى أحمد إلا من خلال الوحى وهذه حجة جازمة ونهائية لأن المدلول الحرفى للإسم اليونانى يعادل بدقة كلمتى " أحمد ومحمد " .

ومن المدهش أن صيغة أفعل التفضيل " أحمد " من " محمد" قد جاء بها الوحى .

ومن المدهش أيضا أنه اسما فريدا لم يعط لأحد من قبل ، إذ

---

(1) قصص الأنبياء – مبحث بشارة عيسى بالنبى .

(2) محمد ﷺ كما ورد فى كتاب اليهود والنصارى . تأليف البروفسور عبد الأحد داوود قسيس أورميا فى إيران سابقا ص ١٤٣ ، ١٤٤ بتصرف . نهضة مصر للطباعة والنشر . ترجمة محمد فاروق الزين .

(3) سورة الصف الآية (٦) .

حجز بصورة معجزة لخاتم الأنبياء والرسل وأجدرهم بالثناء ذلـــك أسم بار قليط لم يطلق على أى يونانى قط كما أن أسم أحمـــــد لـــم يطلق على أى عربى قبل النبى ﷺ " [١] .

[١] محمد ﷺ كما ورد فى كتاب اليهود والنصارى . تأليف البروفسور عبد الأحـد داوود قسيس أورميا فى إيران سابقا . نهضة مصر للطباعة والنشر . ترجمـــة : محمـــد فاروق الزين ص ١٤٤ بتصرف .

المبحث الرابع

شهادة من كان لهم علم بالكتب السماوية بأنه النبى المنتظر

كان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسول فتنتظر فقد حدَّث عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إنما دعانا للإسلام مع رحمة الله تعالى لنا ما كنا نسمع من أحبار يهود. كنا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا قد تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكثير ما يسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله محمداً أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا وكفروا . وإنما قال لهم اليهود : نقتلكم معه قتل عاد وإرم لأن صفته عليه السلام فى كتبهم أن هذا النبى يستأصل المشركين بالقوة ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغى سيتمكنان من أفئدتهم فينبذون الدين القيم فيحق عليهم العذاب فى الدنيا والآخرة . وكان أميه بن أبى الصلت المنتصر العربى كثيراً ما يقول : إنى لأجد فى الكتب صفة نبى يبعث فى بلادنا .

وحدث سلمان الفارسي - رضى الله عنه - عن نفسه أنه صحب قسيسا فكان يقول له : يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولا أسمه أحمد يخرج من جبال تهامه علامته أن يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة . وهذا حديث من أسباب إسلام سلمان [1].

شهادة عبد الله بن سلام :

قال ابن هشام فى سيرته قال ابن إسحاق : " وكان من حديث عبد الله بن سلام ، كما حدثنى بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم ، وكان حبرا عالما ، قال : لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته وأسمه وزمانه الذى كنا نتوكف [2] له ، فكنت مسرا لذلك ، صامتا عليه ، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما نزل بقباء ، فى بنى عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت ، فقالت لى عمتى، حين سمعت تكبيرى : خيبك الله ! والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت ! قال : فقلت لها : أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به ، قال فقالت : أى ابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس

---

[1] نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين . الشيخ محمد الخضرى ص ٢٦ . دار إحياء الكتب العربية .

[2] نتوكف : أى نترقب ونتوقع .

الساعة ؟ قال : فقلت لها : نعم . قال : فقالت : إذاً . قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ ، فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا (١) .

ومن ذلك ما ذكرته صفيه بنت حيى أم المؤمنين عن أبيها وعمها اليهوديين قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينى ونزل قباء ، فى بنى عمرو بن عوف ، غدا عليه أبى ، حيى بن أخطب ، وعمى أبو ياسر بن أخطب ، مفلسين . قالت : فلم يرجعان حتى كانا مع غروب الشمس .

فقالت : فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى .

قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فو الله ما التفت إلى واحد منهما ، مع ما بها من الفم . قالت : وسمعت عمر ، ابا ياسر ، وهو يقول لأبى حيى بت أخطب : أهو هو ؟ قال نعم والله ؛ قال : أتعرفه تثبته ؟ قال : نعم ؛ قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت (٢) .

أيضا روى عن عبد الله بن سلام أنه كان يقول إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ " إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميته المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويتجاوز ولن

---

(١) سيرة ابن هشام ١٦٣/٢، ١٦٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ١٦٥/٢ ، ١٦٦ .

أقبضه حتى يقيم الملة العجواء بأن تشهد أن لا إله إلا الله يفتح به أعينا عمياء وآذانا صما وقلوبا غلفا . قال عطاء بن يسار : وأخبرني الليثي أنه سمع كعب الأحبار يقول مثل ما قال ابن سلام[1] .

أيضا شهادة يهودى من بنى عبد الأشهل : روى عن سلمة بن سلامه – رضى الله عنه – وكان من أصحاب بدر ، قال : كان لنا جار من يهود بنى عبد الأشهل ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، فقالوا له : ويحك يا فلان أو ترى هذا كائنا ؟ أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ، قال : نعم والذى يحلف به ، وليود أى شخص أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه بأن ينجو من تلك النار غدا . فقالوا له : ويحك وما آية ذلك ؟ قال : نبى يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة واليمن ، قالوا : ومن يراه ؟ فنظر إلى وأنا من أحدثهم سنا فقال : إن يستنفذ أى يستكمل هذا الغلام عمره يدركه ، قال سلمة : والله ما ذهب الليل والنهار حتى يبعث الله محمدا ﷺ وهو أى ذلك اليهودى بين أظهرنا فآمنا به وكفر بغيا وحسدا ، فقلنا له: ويحك يا فلان ألست الذى قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال : بلى ولكن ليس به [2] .

---

[1] دلائل النبوة للبيهقى ٢٧٩/١ . تحقيق عبد الرحمن محمد بن عثمان المكتبة السلفية ط : الأولى ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م.

[2] أخرجه الإمام أحمد فى مسنده .

شهادة وهب بن منبه :

ذكر وهب بن منبه " أن الله عز وجل لما قرب موسى نجيا قال رب إنى أجد فى التوراة أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله فاجعلهم أمتى ، قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى التوراة أمة هم الآخرون من الأمم السابقون يوم القيامة فاجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد.."[1]

أيضا ذكر وهب بن منبه فى قصة داود إنه سيأتى من بعدك نبى أسمه أحمد ومحمد صادقاً نبيا لا أغضب عليه أبداً ولا يعصينى أبداً وقد غفرت له قبل أن يعصينى ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأمته مرحومة أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء .." [2] .

وقوله " وقد غفرت له قبل أن يعصينى ماتقدم من ذنبه وما تأخر " يوافق ما جاء فى القرآن الكريم ﴿ .. **ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً** ﴾ [3].

أى ليغفر لك ربك جميع ما فرط منك من الهفوات مما يصح أن يسمى ذنباً بالنظر إلى مقامك الشريف ، وإن كان لا يسمى ذنباً

---

[1] سيرة ابن هشام ١/٢٨١- ٢٨٢ .

[2] نفس المرجع السابق ١/٢٨٢ .

[3] سورة الفتح الآية (٢) .

بالنظر إلى سواك ، ومن ثم قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين والمراد غفران الذنوب التى قبل الرسالة والتى بعدها .

هذا ما ورد فى التوراة والإنجيل وعلى ألسنة أحباء اليهود الذين أهتدوا ودخلوا فى الإسلام مثل : عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه . أيضا من الذين ضلوا وظلوا على كفرهم بغيا وحسدا .

شهادة عمرو بن نفيل :

قال أبو جعفر : وكانت الأمم تتحدث بمبعثه وتخبر علماء كل أمة منها قولها بذلك ؛ فعن زيد بن عمرو بن نفيل – وكل من تناقلوا ما سمعوه عنه – قال : أنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل ، ثم من بنى عبد المطلب ولا أرانى أدركه ، وأنا أؤمن به وأصدقه ،وأشهد أنه نبى ، فإن طالت بك مدة فرأيته ، فأقرئه منى السلام ، وسأخبرك مانعته حتى لا يخفى عليك ! قلت : هلم ، قال : هو رجل ليس بالقصير ولا بالطويل ولا بكثير الشعر ولا بقليله ، وليست تفارق عينيه حمرة ، وخاتم النبوة بين كتفيه ، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه ، ثم يخرجه قومه منها ، ويكرهون ما جاء به ، حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره ، فإياك أن تخدع عنه ، فإنى طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم ، فكل من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون : هذا الدين وراءك ، وينعتونه مثل

ما نعته لك ، ويقولون : لم يبق نبى غيره .

قال عامر بن ربيعة : فلما أسلمت أخبرت رسول ﷺ قول زيد بن عمرو وأقرأته منه السلام ، فرد عليه رسول الله ﷺ وترحم عليه ، وقال : قد رأيته فى الجنة يسحب ذيولا "[1] .

وعلى كل حال فإن وجود الكتب الدينية العالمية الآن أصبح كثيرا ، وانتشارها واسعا ، ولكن الكتب قد حرفت وبدلت ، يشهد على ذلك كل دراسة جيدة لنصوص هذه الكتب ولواقعها التاريخى ، ويكفى كبرهان عملى على تحريف أحدثها وأقربها إلينا (الإنجيل) إن الإنجيل الواحد أصبح أربعة بينها تعارض أحيانا ، وبعضها يزيد على بعض أو ينقص وفى سندها التاريخى انقطاع .

وقد قام بهذه الدراسة المنصفة الواسعة الواعية علماء كبار جمعوا بين معرفة اللغات ، ومعرفة الديانات ، فخرج معهم الشئ العجيب الذى لا يدع مجالا لإنسان يحترم عقله أن يشك فى أن هذه بشارات بمحمد النبى العربى قبل ميلاده بمئات السنين ، وقد نقلنا نماذج من هذه الدراسات ، وسيرى أى منصف أن هؤلاء العلماء ما ظلموا وما حرفوا وما اعتسفوا فى فهم النصوص ولا حملوها فوق ما لا تحتمل . بل فهم هذه النصوص على غير ما ذكره ، هو

---

[1] السيرة النبوية لابن جرير الطبرى ص ٤٤،٤٥ تحقيق جمال بدران . دار الكتب المصرية اللبنانية – الطبعة الأولى ١٤١٤هـ – ١٩٩٤ م .

الاعتساف والتحريف ونأى عن الحق : ﴿ **الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ﴾ [١] .

---

[١] سورة الأنعام الآية ٢ .

الفصل الثالث

إعداده ﷺ قبيل النبوة

إعداده ﷺ قبيل النبوة [1]

لقد هيأ الله تعالى محمدا ﷺ وأعده قبيل النبوة ، ليتلقى الوحى، بحيث يتجه بكل كيانه ووجدانه إلى ربه عز وجل،بعيداً عن مشاغل الدنيا،وفتن العصر .

أولاً : الخلوة فى غار حراء :

فقد حبب إلى رسول الله ﷺ الخلوة عن الخلق ، والإنصراف إلى الخالق ، لما فى الخلوة من صفاء النفس ، وهدوء البال ، والتفكر فى ملكوت الله ، وعظيم خلقه .

وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له ليعده لما ينتظره من الأمر العظيم ، ففى هذه العزلة كان يخلو إلى نفسه ، ويخلص من زحمة الحياة وشواغلها الصغيرة ، ويفرغ لموجبات الكون ، ودلائل الإبداع ، وتسبح روحه مع روح الوجود ، وتتعانق مع هذا الجمال وهذا الكمال ، وتتعامل مع الحقيقة الكبرى وتمرن على التعامل معها فى إدراك وفهم [2] .

فكان رسول الله ﷺ يخلو بغار حراء فى رمضان من كل سنة،يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به ، إذا انصرف من جواره ، الكعبة ، قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، وكانت السيدة خديجة – رضى الله عنها –

---

[1] أعنى " بقبيل النبوة " فترة الخلوة فى غار حراء إلى أن جاءه الوحى . أى قبل بلوغه ﷺ سن الأربعين فقد تكون خمس سنوات أو أقل .. ولكن ابن الجوزى ذكر أن ذلك كان قبل النبوة بسنتين (أنظر شرح المواهب ٢١٤/١) .

[2] أنظر فى ظلال القرآن ٣٧٤١/٦ .

– تعينه على هذه الخلوة وتعد له الزاد والطعام [١] وكان رسول الله ﷺ يرجع إليها فى أثناء الخلوة ليتعهدها ، ويأخذ زاده ، وما زال يخلو ويتعبد [٢] بهذا الغار حتى أكرمه الله بالنبوة ، ونزل عليه الوحى .

وهكذا دبر الله لمحمد ﷺ وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى ، وتغيير وجه الأرض ، وتعديل خط التاريخ .. دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات . ينطلق فى هذه العزلة شهراً من الزمان ، مع روح الوجود الطليقة ، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون [٣] .

بعض ما أكرم الله به نبيه قبيل النبوة :

١) تسليم الحجر عليه :

فمن ذلك ما ذكره ابن اسحاق فى سيرته بسنده عن أهل العلم: أن رسول الله ﷺ كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر [٤]عنه البيوت ويفضى إلى شعاب [٥] مكة وبطون أو ديتها ، فلا يمر رسول الله ﷺ

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام ٢٥٢/١ .

[٢] وقد أختلفت فى تعبده ﷺ قبل النبوة : أكان على شرع أم لا ؟ فقيل : كان يتعبد بالتفكر والتأمل فى ملكوت الله ، وبديع صنعه ، وقيل : كان يتعبد بشرع من قبله ، وقد اختلف فى : على أى شرع كان يتعبد ؟ والأصح أنه كان يتعبد على شريعة أبيه وأبى الأنبياء الخليل عليه السلام ، وكانت قد بقيت منها شرائع لا زالت مأثورة عند العرب .

[٣] فى ظلال القرآن ٣٧٤١/٦ .

[٤] تحسر عنه البيوت : تبعد عنه ويبعد عنها .

[٥] الشعاب : المواضع الخفية بين الجبال .

بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله[1] قال : فيلتفت رسول الله ﷺ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة . فمكث رسول الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ، ما شاء الله أن يمكث ، ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله ، وهو بحراء فى شهر رمضان [2] .

٢) الرؤيا الصالحة :

وكان أول ما بدء به النبى من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا تحقق صدقها ، ورؤيا الأنبياء وحى ، وقد مكث على هذه الحال ستة أشهر حتى نزل عليه جبريل الأمين بالوحى القرآنى ، وذلك فى السابع عشر من رمضان من هذا العام على ما عليه المحققون من العلماء .

عن عائشة – رضى الله عنها – قالت :" أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه : وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار

---

[1] وذلك بأن يخلق الله فيها الكلام من غير حياة ، ولا علم ، أو بأن يخلق الله فيها الحياة والتمييز فتنطق وتتكلم : رأيان للعلماء .. ولكن الله أعلم أى ذلك كان : أكان كلاما مقرونا بحياة وعلم ، فيكون الحجر به مؤمنا ، أو كان صوتا مجردا غير مقترن بحياة .

[2] السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٥٠ .

حراء ، فجاءه الملك فقال : أقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : أقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : أقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال :﴿ **أقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق أقرأ وربك الأكرم** ﴾. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده [1] ، فدخل على خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - فقال : زملونى [2] ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع [3]، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسى [4]، فقالت خديجة : كلا، والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل [5] وتكسب المعدوم [6] وتقرى الضعيف وتعين على نوائب الحق [7] " [8] .

أقول : إن هذه الفترة والرؤيا الصادقة كانت بمثابة مقدمات وإعداد وتهيئة له ﷺ ، لتصقل قلبه ، وتنتقى روحه ، وتقترب من الحق

---

[1] يرجف فؤاده : يضطرب من الخوف والفزع .

[2] زملونى : غطونى ولفونى بالثياب .

[3] الروع : الخوف والفزع .

[4] لقد خشيت على نفسى : أى المرض أو الموت من شدة الضغط والضم .

[5] الكل : الضعيف .

[6] تكسب المعدوم : أى تصيب من المال مالا يصيب غيرك .

[7] نوائب الحق : أى أحداث الزمان ونوازله .

[8] أخرجه البخارى فى صحيحه . باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ١/٢٥-٢٧ من الفتح .

لتصل إلى مرتبة عالية من الصفاء ، مرتبة الإتصال بالملأ الأعلـــى. عليك صلوات الله وتسليمه يا رسول الله .

كما كان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له ، وليعـده لما ينتظره من الأمر العظيم ، ولا بد لأى روح يراد لها أن تؤثر فـــى واقع الحياة البشرية من خلوة وعزلة بعض الوقت ، وانقطـــاع عـــن شواغل الأرض وضجة الحياة وهموم الناس الصغيرة التـــى تشـغل الحياة .

وهكذا دبر الله لمحمد ﷺ وهو يعده لحمـــل الأمانـــة الكـــبرى ، وتغيير وجه الأرض ، وتعديل خط التاريخ .. دبر له هذه العزلة قبـل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات ، ينطلق فى هذه العزلـــة شـــهراً مـــن الزمان ، مع روح الوجود الطليقة ، ويتدبر مـــا وراء الوجود مـــن غيب مكنون،حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله .

٣) قذف الجن بالشهب :

ومن الآيات الدالة على حفظه ﷺ ورعاية الله له عند مبعثه قـذف الجن بالشهب وقطع رصد الشياطين ومنعهم من استراق السمع .

لما تقارب أمر رسول الله ﷺ وحضر مبعثه ، حجبت الشـــياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعد لاستراق السـمع فيها ، فرموا بالنجوم ، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من الله فـــى العباد .

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ حين بعثه ، وهو يقص عليه خبر الجن إذ حجبوا عن السمع فعرفوا ما عرفوا ، وما أنكروا من ذلك حين رأوا ما رأوا ﴿ **قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا * وأنه تعالى جد [1] ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا * وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا** ﴾. إلى قوله : ﴿ **وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا * وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا** ﴾ [2] .

فلما سمعت الجن القرآن عرفت أنها إنما منعت من السمع قبل ذلك لئلا يُشْكِل الوحى بشى من خبر السماء فيلتبس على أهل الأرض ما جاءهم من الله فيه ، لوقوع الحجة ، وقطع الشبهة . فآمنوا وصدقوا[3] .

ذكر ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن العباس عن نفر من الأنصار : أن رسول الله ﷺ قال لهم : ماذا كنتم تقولون فى هذا النجم الذى يرمى به ؟ قالوا : يا نبى الله ، كنا نقول حين رأيناها يرمى بها : مات مَلِك،أو مُلِّك ملك ، وُلد مولود ، مات مولود ، فقال رسول الله ﷺ

---

[1] الجد : العظمة .

[2] سورة الجن الآيات : ١ – ١٠ .

[3] السيرة النبوية لابن هشام ٢١٧/١ ، ٢١٨ .

: ليس ذلك كذلك ، ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً سمعه حملة العرش ، فسبحوا فسبح من تحتهم فسبح لتسبيحهم من تحت ذلك ، فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحوا ، ثم يقول بعضهم لبعض : مم سبحتم ، فيقولون : سبح من فوقنا فسبحنا لتسبيحهم ، فيقولون : ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا ؟ فيقولون : قضى الله في خلقه كذا وكذا ، للأمر الذى كان ؛ فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهى إلى السماء الدنيا ، فيتحدثوا به . فتسترقه الشياطين بالسمع ، على توهم واختلاف ، ثم يأتوا به الكهان من أهل الأرض فيحدثوهم به فيخطئون ويصيبون فيتحدث به الكهان ، فيصيبون بعضا ويخطئون بعضا . ثم إن الله عز وجل حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقذفون بها ، فانقطعت الكهانة اليوم فلا كهانة [1] .

وعن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت :" سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الملائكة تنزل فى العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضى فى السماء ، فتخترق الشياطين السمع فتسمعه ، فتوحيه إلى الكهان ، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم " [2] .

---

[1] نفس المرجع السابق ١/٢٢٠ .

[2] أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب بدء الخلق . باب ذكر الملائكة ١١٦/٧ من الفتح .

كل هذا كان إعداد وتهيئة له ﷺ فكانت البشـــائر والإرهاصـــات تشهد له بالنبوة سواء الجبل أو الحجر والشجر حتى السماء اســـتعدت وخلت من الشياطين التى كان تقعد لتسترق الخبر من السماء .

٤) إعداده ﷺ بالقراءة والعلم :

لقد حض القرآن الكريم على العلم والتعليم فنجد أول ما نزل مـن القرآن على النبى ﷺ قوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربـك الذى خلـق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم * علـم الإنسان ما لم يعلم *** ﴾ [١] .

فأول سورة فى القرآن توجه الرسول ﷺ فى أول لحظة من لحظـات اتصاله بالملأ الأعلى ، وفى أول خطوة من خطواته فى طريق الدعوة التى اختير لها ويعده لها تأمره بالقراءة باسم الله .

وما الأمر بالقراءة إلا للتعلم ، فقد أفصحت الآيات عن الـهدف مـن القراءة وهو العلم وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **اقرأ وربك الأكرم الذى علـم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ وقد أبرز الله تعالى قيمة القلم، حيـث كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرا فى حياة الإنسان.

" وبعد أن نزلـت هذه الآيات الكريمـة نـزل قوله تعـالى : ﴿ **ن والقلم وما يسطرون** ﴾ [٢] وفى هذه المرة الثانية من الوحى بـدأ

---

[١] سورة العلق الآيات ١- ٥ .

[٢] سورة القلم الآية (١) .

الله سبحانه النجم القرآنى . بحرف من حروف الهجاء وأقسم بالقلم والكتابة .

فكان أول قسم فى القرآن هو القسم بالقلم ، وما يسطر بالقلم .

أما أسم الكتاب الموحى به فهو القرآن ، يقول الراغب الأصفهانى، " قال بعض العلماء تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله لكونه جامعا لثمره كتبه ، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم .

كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ **وتفصيل كل شئ** ﴾ [١] وقوله ﴿ **تبيانا لكل شئ** ﴾ [٢] .

- فالقرآن الكريم بتسميته .
- وبأول آيات نزلت منه .
- وبأول قسم فيه .

يوجه الإنسان بطريق إيحائى غير مباشر إلى العلم " [٣] .

هذا مع أن الرسول ﷺ لم يكن كاتبا بالقلم قال تعالى : ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمنك إذا لارتاب المبطلون** ﴾ [٤].

---

[١] سورة يوسف الآية ١١١ .

[٢] سورة النحل الآية ٨٩ .

[٣] انظر الفتوحات الربانية للدكتور الحسينى أبو فرحة ١/١٥٣- ١٥٤ . أخذا من بحث " الإسلام والعلم " لمؤتمر مجمع البحوث الإسلامية فبراير سنة ١٩٧٠م بتصرف للدكتور/عبد الحليم محمود .

[٤] سورة العنكبوت الآية ٤٨ .

وقال البوصيرى مشيرا إلى ذلك :

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة .. فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

فما كانت أميته إلا لتأكيد نبوته من ثلاثة أوجه :

أحدها : لموافقة بشارة أبى الأنبياء سيدنا ابراهيم عليه السلام ودعوته التى أطلقها فى ظل البيت العتيق هو وإسماعيل عليه السلام : ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ [1] .

فقد حفظ الله هذه الدعوة حتى جاء موعدها المقدور فى علم الله، ووفق حكمته ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ [2] ، وحتى تؤدى دورها فى الكون حسب التدبير الإلهى الذى لا يستقدم معه شئ ، ولا يستأخر عن موعده المحدد .

وقد سئل رسول الله ﷺ عن نفسه فقال : " دعوة أبى إبراهيم . وبشرى عيسى . ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام " [3] .

---

(١) سورة البقرة الآيات ١٢٧ ـ ١٢٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٤ .

(٣) من رواية ابن إسحاق وقد سبق تخريجه ص

الثانى : لمشاكلة حاله لأحوالهم ، فيكون أقرب لموافقتهم ، فقد أمتـــن الله تعالى على المؤمنين أن يكون هذا الرسول " من أنفسهم " بقوله تعـــالى : **﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلـــو عليهم آياته ويزكيهم .. ﴾** [١] .

يقول الشيخ سيد قطب [٢]:وتتضاعف المنة بأن يكون هذا الرسول " من أنفسهم " .. لم يقل " منهم " فإن للتعبير القرآنى **﴿من أنفسهم ﴾** ظلالا عميقة الإيحاء والدلالة .. إن الصلة بين المؤمنين والرســول هـــى صلـــة النفس بالنفس ، لا صلة الفرد بالجنس. فليست المسألة أنه واحد منهم وكفى . إنما هى أعمق من ذلك وأرقى . ثم إنهم بالإيمان يرتفعـــون إلـــى هـــذه الصلة بالرسول، ويصلون إلى هذا الأفق من الكرامة على الله.فـــهو منـــة علـــى المؤمنين .. فالمنة مضاعفة، ممثلة فى إرسال الرسول ، وفى وصل أنفسهم بنفس الرسول، ونفس الرسول بأنفسهم على هذا النحـــو الحبيـــب " أ.هـــ .

فقد اقتضت حكمة الله أن يكون هذا النبى من العرب ، مـــن الأميين غير اليهود ، ليجعلهم أهل القرآن الكريم .

الثالث : لينتفى عنه سوء الظن فى تعليمه من الكتـــب السـابقة التـوراة والإنجيل ولذلك قال تعالى : **﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجـــمى وهذا لسان عربى مبين ﴾** [٣] . فأنزل الله هذه الآية ليكذبهم .

---

[١] سورة آل عمران الآية (١٦٤) .

[٢] فى ظلال القرآن ٥٠٧/١ .

[٣] سورة النحل الآية (١٠٣) .

ومن مهام الرسول ﷺ التعليم والتزكية .

وقد تواردت عدة آيات لتأكيد هذا المعنى .

قال تعالى : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم أياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ [2] .

وقال جل ذكره : ﴿ **هو الذى فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ [3] .

" فالعلم إذن فى الرسالة الإسلامية شطرها . بل هو شطرها الأساسى . أى الشطر الذى تقوم عليه التزكية . إذ لا يتأتى أن تقوم التزكية – وهى التطهير – على الجهل أبد " [4] .

فضل العلم : وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تشيد بالعلم وحملته من ذلك : قوله تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ [5] .

---

[1] سورة البقرة الآية (١٢٩) .

[2] سورة آل عمران الآية (١٦٤) .

[3] سورة الجمعة الآية (٢) .

[4] مبحث الإسلام والعلم للدكتور / عبد الحليم محمود .

[5] سورة المجادلة الآية ١١ .

يقول ابن عباس – رضى الله عنهما – :" للعلماء درجات فـــوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام"[١].

وينفى عز وجل المساواة بين العــلماء وغيرهم بقوله تـــــعالى :﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ [٢] .

كما أثبت لأهل العلم وحدهم الخشية منه سبحانه وتعالى . وهـــى من ثمار مقام الإحسان .

وهو أعلى من مقامى الإسلام والإيمان كما جـــاء فـــى حديـــث جبريل.

يثبت تعالى لأهل العلم وحدهم الخشية منه بطـــريق الحصــر فيقول عز من قائل ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [٣] فيثنـــى عليهم بالخشية منه سبحانه .. وذلك أن أهل خشيته تعالى . هم أهـــل معرفته وحضرته " [٤] .

وغير ذلك من النصوص النبوية المبينة لهدى القرآن فى فضـــل العلماء كثير منها قوله ﷺ : " العلماء ورثة الأنبياء" [٥] .قال الإمـــام الغزالى : " ومعلوم أنه لا رتبة فـــوق رتبـــة النبوة ولا شـــرف فوق

---

[١] أنظر إحياء علوم الدين ١٥/١ .

[٢] سورة الزمر الآية (٩) .

[٣] سورة فاطر الآية (٢٨) .

[٤] الفتوحات الربانية للدكتور/ الحسينى أبو فرحه ١٥٨/١ .

[٥] أخرجه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجة .

الوراثة لتلك الرتبة " [1] .

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ " فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد " [2] .

وإذا كان هذا شأن العلم وصاحبه فى القرآن والسنة فأكرم بسيد العلماء سيدنا رسول الله ﷺ فقد كان حريصا على بث العلم بين الناس أجمعين . العلم الذى يدعو إليه القرآن الكريم .

ولكن الجهل بالدين كان سببا من أسباب التكذيب به ﷺ قال تعالى : ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم** ﴾ [3] لذلك عانى رسول الله ﷺ من تكذيبهم بسبب جهلهم . وقيل : " من جهل شيئا عاداه " .

ومن هنا كانت الدعوة إلى الله ركنا هاما من أركان الإسلام لذلك أعد الله تعالى نبيه ﷺ بالعلم لأنه من مؤهلات السيادة والملك.

قال تعالى حاكيا عن بنى إسرائيل من بعد موسى عليه السلام لما طلبوا من نبى لهم يختار لهم ملكا يقاتلون معه أعداءهم فاختار الله لهم طالوت ملكا . فاعترضوا قائلين : ﴿ **أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال * قال إن الله اصطفاه**

---

[1] الإحياء ١٦/١ .

[2] رواه الترمذى وابن ماجة .

[3] سورة يونس الآية (٣٩) .

عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴾ [1] .

****

---

[1] سورة البقرة الآية (٢٤٧) .

الفصل الرابع

إعداده ﷺ بعد البعثة لتحمل أعباء الرسالة

المبحث الأول : عصمة الله له من الناس وكفايته من أذاهم .

المبحث الثاني : إعداده بالصبر لتحمل أعباء الرسالة .

المبحث الثالث : تسليته ﷺ .

إعداده ﷺ بعد البعثة لتحمل أعباء الرسالة

تمهيــــد :

بعد ما أعد الله تعالى نبيه ﷺ قبل البعثة خلقيا وخلقيا ، وعصمــه عن اللهو والعبث والمجون ولم يشاركهم فى عاداتهم السيئة ، ثم مــن بعد ذلك عاكفا زاهدا ، منصرفا عن الناس إلا ما يوجبه حق المجتمــع عليه ، من عطاء يقدمه لمحتاج ، أو معاونـــة لمســتعين ، أو إغاثــة لملهوف ، أو صلة لرحم ، وغير ذلك . فهو الطاهر الذى أدبه ربـــه فأحسن تأديبه ، فكانت حياته الأولى قبل البعثة مرشحه لحياته الثانيـــة بعد البعثة ، وآية على أنه ذلك الرسول المنتظر ، والنبى المرتقب .

أخذ فى إعداده لمواجــهة النـــاس وتحدى المشـــركين بوســـائل ثلاث : -

(١) عصمة الله له من الناس وكفايته من أذاهم .

(٢) إعداده بالصبر لتحمل أعباء الرسالة .

(٣) تسليته ﷺ .

المبحث الأول

عصمة الله له من الناس وكفايته من أذاهم

ظلت الدعوة فى بدء أمرها ثلاث سنوات سرية ، لئـــلا يفــاجئ أهل مكة بما يهيجهم ويثير غضبهم ، وعندما أعلـــن رســـول الله ﷺ الدعوة فى السنة الرابعة من النبوة واجه من سفهاء وكبراء مكة كـــل صنوف الأذى من التكذيب والإضهاد . ولكن الله تعالى كفـــاه أذاهـــم ومكرهم ، وتعهد بحمايته ونصرته ، وكفى الله حامياً وناصراً .

قال تعالى : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ [1] .

وقال تعالى :﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ [2] .

وقال : ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ [3] .

وقال : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجـــوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ [4] .

عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : كان النبى ﷺ يُحرس حتـــى نزلت هذه الآية﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ فأخرج رســـول الله ﷺ

---

[1] سورة النساء الآية ٧٠ .

[2] سورة الزمر الآية ٣٦ .

[3] سورة الحجر الآية ٩٥ .

[4] سورة الأنفال الآية ٣٠ .

رأسه من القبه ، فقال : " أيها الناس .. انصرفوا فقد عصمنى ربى عز وجل " [1] .

وقد أمر الله تعالى محمدا ﷺ بإنذار عشيرته المقربين .

قال تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ [2] فقام على جبل الصفا صارخاً يا صباحا : فاجتمع إليه بطون قريش ، فدعاهم إلى التوحيد والإيمان برسالته وباليوم الآخر . وقد روى البخارى [3] طرفا من هذه القصة عن ابن عباس – رضى الله عنه – قال : لما نزلت ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ صعد النبى ﷺ على الصفا ، فجعل ينادى يا بنى فهر .. يا بنى عدى .. يا بطون قريش ، حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش . فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقا ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت : ﴿**تبت يدا أبى لهب** ﴾ .

ولقد دعته حماقته وقسوة قلبه إلى أن يأمر ولديه عتبة وعتيبة بفراق رقية وأم كلثوم بنتى

---

[1] أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب التفسير . باب من سورة المائدة ٢٥١/٥ .

[2] سورة الشعراء الآية ٢١٤ .

[3] فى صحيحه . كتاب التفسير . باب وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك ١١٨/١٠ – ١٢٠ من الفتح .

النبى ﷺ [١] .. تحدياً سافراً منه للنبى ﷺ ، وليرغمه على الرجوع عن دعوته إلى دين الله وعودته إلى دين قومه .

ولما مات عبد الله – الابن الثانى لرسول الله ﷺ استبشر أبو لهب وهرول إلى رفقائه يبشرهم بأن محمداً صار أبتر [٢] .

أخذ بصر امرأة أبى لهب :

وكانت امرأة أبى لهب – أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان – لا تقل عن زوجها فى عداوة النبى ﷺ ، فقد كانت تحمل الشوك وتضعه فى طريق النبى ﷺ وعلى بابه ليلاً ، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها ، وتطيل عليه الإفتراء والدس، وتؤجج نار الفتنة وتثير حرباً شعواء على النبى ﷺ ، ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب .

ولما سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن أتت النبى ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق ، وفى يدها فهر (أى بمقدار ملء الكف) من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إنى لشاعرة ثم قالت :

---

[١] فى ظلال القرآن ٣٠/٢٨٢ .

[٢] تفهيم القرآن لأبى الأعلى المودودى ٦/٤٩٠ . مكتبة جماعة اسلامى الهند .

مذَمَّما عصينا   وأمره أبينـــا

ودينـــه قلينـــا

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتــك ؟ فقال : ما رأتني ، لقد أخذ الله ببصرها عني .. .. وكان رســـول الله ﷺ يقول : ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قريـــش ، يسبون ويهجون مذمما ، وأنا محمد [1] .

- تيبس يدا أبي جهل عندما أراد قتل الرسول ﷺ :

وقد حاول طغاة قريش قتل رسول الله ﷺ ، ولكن الله تعـــالى حفظه ونجاه ، ومما يدل على ذلك ما رواه ابن اسحاق في حديـــث طويل ، قال : قال أبو جهل :

" يا معشر قريش ، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيـــب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله . فإذا ســـجد فـــي صلاتـــه فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعـــد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ؛ قالوا : والله لا نسلمك لشئ أبـــداً ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسـول الله ﷺ ينتظره ، وغداً رسول الله ﷺ كما كان يغدو .. فقام رســـول الله ﷺ يصلي ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون مـــا

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٨١ ، ٣٨٢ .

أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه مرعوباً ، قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده ، وقامت إليه رجال قريش ، فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ، قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته [1] ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بى أن يأكلنى .

قال ابن إسحاق :

فذُكر لى أن رسول الله ﷺ قال : ذلك جبريل عليه السلام ، لو دنا لأخذه [2].

ولم تزل فكرة قتل الرسول ﷺ تراود طغاة قريش .

روى ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: حضرتهم ، وقد اجتمعوا فى الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم فبيناهم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك فى وجهه ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ،

---

(1) قصرته : عنقه .

(2) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣١٩-٣٢٠ .

فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ،أما والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه [1] بأحسن ما يجد ، ويقول : انصرف يا أبا القاسم ، فو الله ما كنت جهولا [2] .

روى البخارى [3] بسنده عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ كان يصلى عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، إذ قال بعضهم لبعض : أيكم يجئ بسلى [4] جزور بنى فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد ؟ فانبعث أشقى القوم فجاء به فنظر حتى سجد النبى ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه وأنا أنظر . لا أغنى شيئا لو كانت لى منعة . قال : فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض ، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه ، حتى جاءته فاطمة فطرحته عن ظهره ، فرفع رأسه ثم قال : اللهم عليك بقريش ، ثلاث مرات . فشق عليهم إذ دعا عليهم . قال : وكانوا يرون أن الدعوة فى ذلك البلد مستجابة . ثم سمى اللهم

---

(1) يرفأه : يهدئه ويسكنه ويرفق به ويدعو له .

(2) السيرة النبوية لابن هشام ٣٠٩/١ .

(3) أخرجه البخارى فى صحيحه " كتاب الوضوء " باب إذا ألقى على المصلى قذر أو جيفة ٣٦٣/١ - ٣٦٥ من الفتح .

(4) السلى : الجلده التى يكون فيها الولد ، يقال لها ذلك من البهائم . وأما الآدميات فالمشيمة . وقد يكونوا ألقوا عليه فرثها ودمها وسلاها .

عليك بأبى جهل ، وعليك بعتبة بن ربيعه ، وشيبة بن ربيعه ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبى مُعيط — وعد السابع فلم نحفظه . قال : فو الذى نفسى بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى فى القليب قليب بدر .

استجابة الله لدعائه ﷺ يوم ثقيف :

لما أسرف سفهاء قريش فى إيذاء النبى ﷺ ووقفوا عقبة فى سبيل الدعوة الإسلامية خاصة بعد موت عمه أبى طالب ، وزوجه خديجة - رضى الله عنها - ، خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف ، يلتمس النصرة من ثقيف ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل وكان معه مولاه زيد بن حارثة وذلك فى شوال فى السنة العاشرة من النبوة .

وكان ممن قابلهم ثلاثة من أشرافهم : عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو بن عوف ، وكانوا سادة ثقيف وأشرافها ، وكانت عند أحدهم صفية بنت معمر القرشى الجمحى ، فجلس إليهم ، وكلمهم بما جاء له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال أحدهم : هو يمرط [1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، وقال الثانى : أما وجد الله أحداً غيرك يرسله . وأما الثالث فكان أعقل منهما فقال : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت

---

[1] يمرطه : أى ينزعه ويرمى به .

رسول الله لأنت لأعظم خطراً من أن أرد عليك ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك ، فقام رسول الله ﷺ من عندهم ، وهو يئس من مناصرتهم له ، وقال لهم : " إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا على " كراهة أن يبلغ قومه عنه مجيئه لهم ، فيزادوا إيذاء له ولأصحابه ، وكان القوم لئاما فلم يفعلوا ، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمون عراقيبه بالحجارة حتى دميت عقباه .. وزيد بن حارثة مولاه يدرأ عنه ويدفع حتى أصيب في وجهه ، وما زالوا بهما حتى الجأوهما إلى حائط – بستان - لعتبة وشيبة ابنى ربيعه وهما فيه ، فكره مكانهما لعداوتهما لله ورسوله ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل شجرة من عنب، فجلس فيه هو وصاحبه زيد ريثما يستريحان من عنائهما ، وما أصابهما ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف ، ولعلهما كانا يتلذذان من هذا المشهد الذى شفى نفوسهما من الرسول .

هنالك توجه الرسول ﷺ إلى ربه متضرعاً داعا بهذا الدعاء الذى يفيض أيماناً ويقيناً قال : " اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟! إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له

الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بى غضبك، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك " [1] .

ثم غادر رسول الله ﷺ الطائف ، وهو مهموم النفس ، فلم يستفق إلا وهو " بقرن المنازل " فبعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال ، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة .

وقد روى البخارى [2] ومسلم [3] بسنديهما عن عروة بن الزبير ، أن عائشة - رضى الله عنها - حدثته : أنها قالت للنبى ﷺ هل أتى عليكم يوم أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى . فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال : يا محمد ، فقال : ذلك فيما شئت إن

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام ٦٠/١-٦٢ بتصرف .

[2] أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ١٢٣/٧-١٢٤ من الفتح .

[3] ومسلم كتاب الجهاد باب ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٥٤/١٢-١٥٥ شرح النووى .

شئت أن أطبق عليهم الأخشبين [١] ، فقال النبى ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً" وفى بعض الروايات : فقال له ملك الجبال : أنت – كما سماك ربك – رءوف رحيم .

يتبين من خلال تلك الروايات أن الأمم العظيمة لا تقوم إلا على أيدى العظماء ، وأصحاب القويمة ، والمثل العليا – الذين لا تخور قواهم أمام عتاد الأعداء وتحديات الزمن ، وإنما يواجهون الشدائد والصعاب بعزيمة قوية ونفس راضية ، يستعذبون المر فى سبيل تحقيق رسالتهم التى بعثوا من أجلها .

والعاقل هو الذى يلجأ إلى الله تعالى فيما يبتليه من الشدائد ﴿وقال ربكم ادعونى استجب لكم ﴾ [٢] لقد التجأ النبى ﷺ إلى جناب الله تعالى – ولم يلتفت إلى مخازى القوم – قائلاً : " اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وهوانى على الناس .. "

إذن فلا بد من تفريج هذه الكروب ، وتخفيف هذه الأحزان والاستجابة للدعاء وإمداده بالزاد والطاقة التى تساعده على بذل أقصى جهده وتحمل مسئولية الرسالة ، لهذا نزل عليه ملك الجبال مسريا لهمومه ومخففا لأحزانه .

---

[١] هما جبلا مكة : أبو قبيس والذى يقابله ، وسمى بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما .

[٢] سورة غافر الآية ٦٠ .

حماية الله تعالى للنبى ﷺ عند الهجرة :

عندما أذن الله لنبيه ﷺ فى الهجرة إلى المدينة أجمعت قريش على قتله ، فنزل جبريل على النبى ﷺ مخبراً له بما بيتوه ، وآمرا له أن لا ينام على فراشه الذى كان يبيت عليه ، فخرج عليهم من بيته فقام على رؤوسهم وقد ضرب الله تعالى على أبصارهم وذر التراب على رؤوسهم وخلص منهم ، وقد أنزل الله سبحانه فى شأن هذه المؤامرة قوله : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ [١]

كما حماه الله تعالى من رؤيتهم له ﷺ فى الغار فقد هيأ له العنكبوت الذى نسج عليه حتى قال أمية بن خلف [٢] حين قالوا : ندخل الغار ، قال : لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه[٣] .. ووقفت الحمامتان على فم الغار فقالت قريش : لو كان فيه أحد لما كانت هناك الحمام [٤].

كل هذا من صنع الله تعالى لنبيه أن تعمى عنه عيون أعدائه وهو منهم على مد الطرف ، قال الله تعالى فى ذكر الهجرة

---

[١] سورة الأنفال الآية ٣٠ .

[٢] أميه بن خلف : هو أحد جبابرة قريش فى الجاهلية ، ومن ساداتهم . أدرك الإسلام . ولم يسلم . وهو الذى عذب بلالا الحبشى فى بداءة ظهور الإسلام أسرة عبد الرحمن بن عوف يوم بدر . فرآه بلال فصاح بالناس يحرضهم على قتله ، فقتلوه .

[٣] ابن كثير فى البداية والنهاية ٣/١٨٧- ١٨٨ ، وابن حجر فى الفتح ٨/٢٣٧ .

[٤] الشفا ١/٦٨٦ .

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن أن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ﴾ [1] .

والجنود التى يخذل بها الباطل وينصر بها الحق ليست قاصرة على نوع معين من السلاح ولا صورة خاصة من الخوارق إنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية،وإذا كانت مادية فإن خطرها لا يتمثل فى ضخامتها،فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذى لجب [1]

وهكذا وقى الله نبيه وصاحبه بأضعف جنده ، فسبحان الله تعالى الذى يسخر ما يشاء من خلقه ، لمن يشاء من عباده المخلصين .

---

[1] سورة التوبه الآية ٤٠ .

[1] جيش ذو لجب : أى عظيم ذو كثرة ، انظر فقه السنة للشيخ محمد الغزالى ص ١٧٣

المبحث الثانى

إعداده بالصبر لتحمل أعباء الرسالة

لقد مر بنا صور الإضطهاد والتعذيب والإهانات لرسول الله ﷺ ولمن معه ، وقد استغرقت ثلاثة عشر عاما قضاها بمكة ، وكل هذا تحمله الرسول ﷺ من أجل تبليغ أكبر رسالة فى الوجود ، كانت عامة للإنس والجن مجتمعين قال تعالى : **﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾** [(١)] .

وكانت هذه الرسالة إلى قوم مشركين متعصبين ، فقد تأصل الشرك فى أنفسهم ، حتى احتلت الأصنام فى عقولهم وقلوبهم مكانا له من القداسة ، لذا أذوا رسول الله ﷺ بكل أصناف التعذيب والأذى الذى لحق به وبأقاربه وأصحابه ، وكل هذا يجرح نفس الإنسان ويحطم أعصابه ، ومع ذلك فما أبه ﷺ لهذا كله ، بل قابله بالصبر .

[(١)] سورة الأحقاف الآيات ٢٩- ٣١ .

والصبر : هو حبس النفس على ما يقتضيه الشرع والعقـــل ، وهو من ألزم الصفات للمسلم فما من عمل قوى ، ولا رسالة ناجحة إلا وهما محتاجتان إلى الصبر كأساس قوى لنجاحهما .

ولا يستطيع المسلم أن يكون أهلا لحمل أعباء هذا الدين إلا إذا صبر على اعتناق العقيدة الإسلامية التى يدين بها ، وصبر علـــى تحـــمل أعباء التمسك بـــهذه العقيدة فأعباؤها كثيرة لكـــثرة أعدائها لأنها حـــق ، وأعداء الحق كثيرون فى كـــل زمان ومكان، وهـــذه العداوة ضاربة تســـتهدف القضـــاء علـــى العقيـــدة وعـــلى المـــؤمنين بـــها .

والصبر يكون على الشهوات ، وعلى الناس وما يبدو منهم من شر ، والصبر على الطاعة ، والصبر على المعصية .

أيضا الصبر مع الذين يدعون ربـــهم ويلـــتزمون بمنهجـــه ، وهؤلاء لصحبتهم أعباء ومشقات لا بد من الصبر عليها قال تعالى: **﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريـــدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾** [1] .

أيضا الصبر على ما يواجهه من بعض المدعوين من قول ناب وعمل ظالم كما قال تعالى **﴿ واصبر على ما يقولـــون واهجرهـــم هجرا جميلا ﴾** [2] .

---

[1] سورة الكهف الآية ٢٨ .

[2] سورة المزمل الآية ١٠ .

لهذا أعد الله تعالى نبيهﷺ لتحمل مسئولية الرسالة ولمواجهة إيذاء الناس .

قال الفخر الرازى : " وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطا للناس أو مجانبا عنهم فإن خالطهم فلا بد له من المصابرة على إيذائهم وإيحاشهم ، فإنه إن كان يطمع منهم فى الخير والراحة ولم يجد ما يطمع فيقع فى الغموم والأحزان ، فثبت أن من أراد مخالطة مع الخلق فلا بد له من الصبر الكثير ، فأما إن ترك المخالطة فذاك هو الهجر الجميل ، فثبت أنه لا بد لكل إنسان من أحد هذين الأمرين " [١] .

ولما قال المشركون بتعدد الآلهة وأظهروا الكفر والشرك الذى لا يليق بالله تعالى أمره تعالى بالصبر على ما يقولون ، كما أمره بتنزيه الله تعالى ، والتبرئه من السوء والثناء الجميل عليه قال تعالى : **﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾** [٢] .

ولقد كان حرص النبى ﷺ الشديد على إيمان قومه ونجاتهم ورفعة شأنهم ، وحرص على إيذائه وتوجيه التهم الباطلة إليه فكان الله تعالى يخفف من أحزانه ويأمره بالصبر عليهم وذلك فى قوله جل ذكره **﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ﴾** [٣].

---

[١] تفسير الفخر الرازى ١٨٠/٣٠ .

[٢] سورة طه الآية ١٣٠ .

[٣] سورة النحل الآية ١٢٧ .

ولما كان الكفار يبالغون فى إيذائه ﷺ ، وهو كان يريد مقاتلتهم أمره الله تعالى بالصبر على ما يناله من أذى قومه إزالة لوحشته ، وتقوية لقلبه على تحمل التكليف المستقبل .

فقال تعالى : ﴿ **فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا** ﴾ [1] .

كما أمره بالصبر على الطاعة ، ولا يلتفت إلى المغريات ، ولا إلى زينة الحياة الدنيا ، ولكن يجعل الله تعالى كل أمله ورجائه، ويمضى لأمر الله ونهيه ، ويبلغ ما أرسل به ، فهو عليه الصلاة والسلام بمرأى من الله تعالى ومحفوظ برعايته . قال سبحانه ﴿**واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾[2]

ومن صور أمره عليه الصلاة والسلام بالصبر لتحمل أعباء الرسالة تذكيره بما وقع لإخوانه الرسل قبله . ثم ما كان منهم من الصبر والمضى فى الطريق ، حتى جاءهم نصر الله ، ليقرر أن هذه سنة الدعوات التى لا تتبدل ولا تتأثر مهما قوبلت من صعوبات، كما أنها لا تستعجل مهما ينزل بالرسل من الأذى والتكذيب والضيق .

---

[1] سورة الإنسان الآية ٢٤ .

[2] سورة الطور الآية ٤٨ .

قال تعالى : ﴿ **ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا علـــى مـــا كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جـــاءك من نبأ المرسلين** ﴾ [1] .

هكذا رأينا العناية الإلهية بمحمد ﷺ وأمره بالصبر فيما يبتليـــه الله به من الشدائد فى نشر دعوة الحق . ولـــولا الصـــبر لأصبـــح عاجزا أمام أعدائه ، ولما تحمل أعباء ومسئولية الرسالة .

---

[1] سورة الأنعام الآية ٣٥ .

المبحث الثالث

تسليته ﷺ لتحمل أعباء الرسالة

لما كان من منهج إعداد الرسول ﷺ أمره بالصبر على المكاره والأذى، ومعلوم أن معنى الصبر أُخذ من مذاقه، فهو مر المذاق، ويصعب تجرعه وتحمله ، ولكى يقوى على الصبر وعلى تحملـــه فلا بد من نفسية قوية ، وعزيمة صادقة مـــن المـــأمور ، ووعـــد صادق بالنصر من الآمر ، وأن بعد العسر يسرا ، وأن النصر مـــع الصبر .

لهذا فلا يكون الصبر إلا بالتســـلية ، ففـــى التســـلية تخفيـــف للحزن والهم ، وتفريج لكل كرب ، لذا كان من منهج القرآن الكريم تسلية الرسول ﷺ لتقوية قلبه ، وتثبيت فؤاده ، وزيـــادة صـــبره . وليشعر بالعناية الإلهيه من ربه ، وتعهد مولاه إياه .

وقد تنوعت أساليب التسلية فى القرآن الكريم منها :

١) عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين ، التى لها فـــى القـــرآن عرض طويل خاصة فى القسم المكى وفيها يقول الله ســـبحانه :

﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ (١)

---

(١) سورة هود الآية ١٢٠ .

﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ [1] .

﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق ..﴾ [2] .

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ [3] .

﴿ منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ [4].

كما أن ذكر قصص الرسل السابقين وما لاقوه من أقوامهم فيها ما فيها من التعليم والعبرة ، لذلك تعددت قصة موسى عليه السلام مع فرعون فى مواطن كثيرة فى القرآن الكريم وذلك لوجود تشابه بينهما منها : أن رسالة موسى عليه السلام كانت أكبر الرسالات قبل رسالة سيدنا محمد ﷺ . أيضا فإن أخبار موسى عليه السلام كانت مشهورة عند أهل مكة ، ومعاصرة اليهود للنبى ﷺ ، ووجود التوراة بين أيديهم مسجل فيها أفعالهم مع موسى عليه السلام ولكنه صبر على أذى فرعون له ولقومه فكان الفلاح عاقبته وجزاء صبره ، إذ أخذ الله تعالى فرعون أخذا شديدا وبيلا إذ أغرقه فى

---

[1] سورة الأعراف الآية ١٠١ .

[2] سورة الكهف الآية ١٣ .

[3] سورة يوسف الآية ٣ .

[4] سورة غافر الآية ٧٨ .

اليم ، ونجى الله موسى ومن معه من المؤمنين كما حكـــى القــرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ (١) .

وقوله :**﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمــرات لعلهم يذكرون ﴾ (٢) .**

وقوله : **﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ (٣) .**

وقوله : **﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليــم بأنـــهم كذبــوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ (٤) .**

وهنا يهون الله تعالى على نبيه ﷺ ويشد من أزره ويقول لـــه اذكر أخاك موسى وما حصل له مع فرعون وما عاقبة كل منهما .. كانت عاقبة موسى الفلاح وعاقبة فرعون الخسران . وأنتم يا كفـار مكة اعتبروا من أحداث السابقين وإلا كانت نـــهايتكم أشــد ســوءا وعذابكم أكثر غلظة .

ولا شك أن الله تعالى كان يقص على نبيه ﷺ هذه القصص

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .
(٢) ،، ،، ،، الآية ١٢٩ .
(٣) ،، ،، ،، الآية ١٣٣ .
(٤) ،، ،، ،، الآية ١٣٦ .

عندما يشتد الخصام بينه وبين اعدائه ليهون عليه هذه الشدائد .

٢) **أسلوب الوعد بالنصر والتأييد والحفظ :**

تعهد الله نبيه ﷺ بوعده بالنصر قال تعالى : ﴿ **وينصـــرك الله نصرا عزيزا** ﴾ [١] وقال جل ذكره : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذيـــن آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ [٢] اى إنـــا لنجعــل رسلنا هم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم ، وننصر معهم من آمـــن بهم فى الحياة الدنيا ، وكذلك ننصرهم عليهم يوم القيامة .

كما أخبر الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه وهو لا يخلف الميعاد ، أخرج الترمذى عن أبى الدرداء قال : ســـمعت رسول الله ﷺ يقول : " ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كـــان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة " ثم تلا : ﴿ **وكـــان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ [٣] .

ولا يخفى مـــا فى هذا من الوعد والبشــــارة بـــالظفر علـــى أعدائه، والوعيــد والنكـــال والخســران فـــى المـــآل ، لمـــن كذب به من قومه .

---

[١] سورة الفتح الآية (٣) .

[٢] سورة غافر الآية (٥١) .

[٣] الآية رقم (٥١) من سورة الروم ، والحديث أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب الــبر والصلة . باب ما جاء فى الذب عن عرض المسلم ٣٢٧/٤ قـــال الــترمذى : هــذا حديث حسن .

كما وعد سبحانه نبيه بالتأييد والحفظ قال تعالى : ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا** ﴾ [1] وقال جل ذكره : ﴿ **ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ..** ﴾ [2] .

٣) تفويض الأمر إلى الله فى حربهم وإنذارهم :

إن الإنسان إذا اهتم بمهم وكان غيره قادرا على كفايته هذا الأمر قال له " اترك الأمر لى " وهو كقوله تعالى : ﴿ **فسيكفيكم الله وهو السميع العليم** ﴾ [3] أخبر الله تعالى أن عداوتهم مهما عظمت فلن تضره عليه السلام ، لأنه تعالى قد كفاه شرهم ، وهذا الإخبار ضمان من الله لرسوله ، كفايته ومنعه منهم ، ويضمن ذلك إظهاره على اعدائه ، وغلبته إياهم ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ [4] .

والقرآن الكريم زاخر بالآيات التى تحث على تفويض الأمر إلى الله فى حربهم مثل قوله تعالى : ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ [5].
ففى هذه الآية خطاب للنبى ﷺ بألا يطيع الكافرين والمنافقين ، وألا

---

[1] سورة الطور الآية (٤٨) .

[2] سورة الشرح الآيات ١- ٦ .

[3] سورة البقرة الآية ١٣٧ .

[4] سورة الأعراف الآية ٦٦ .

[5] سورة الأحزاب الآية ٤٨ .

يهتم بإيذائهم له وللمؤمنين ، وألا يتقيه بطاعتهم في شئ ، وأن يتوكل على الله وحده وهو بنصره كفيل .

وقوله تعالى : ﴿ **فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين** ﴾ [١] . ففي هذه الآية تهديد مزلزل من الجبار القهار القوى المتين للمكذبين . يقول سبحانه للرسول ﷺ : خل بيني وبين من يكذب بهذا الحديث . وذرني لحربه فأنا به كفيل . ويكشف سبحانه عن طريقته وعن سنته ، فهو سبحانه يمهل ولا يهمل ، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . وفي هذا اطمئنان للرسول ﷺ وتحذير لأعدائه .

أيضا قوله تعالى : ﴿ **إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا** ﴾ [٢] .

يقول الشيخ سيد قطب [٣] : " ونلحظ في التعبير الإيناس الإلهي للرسول : ﴿ **فمهل الكافرين أملهم رويدا** ﴾ .. كأنه هو ﷺ صاحب الأمر ، وصاحب الإذن ، وكأنه هو الذي يأذن بإمهالهم . أو يوافق على إمهالهم . وليس من هذا كله شئ للرسول ﷺ إنما هو الإيناس والود في هذا الموضع الذي تنسم نسائم الرحمة على قلبه ﷺ . الإيناس الذي يخلط بين رغبة نفسه وإرادة ربه . ويشركه في

---

[١] سورة القلم الآية ٤٤- ٦٥ .

[٢] سورة الطارق الآيات ١٤- ١٧ .

[٣] في ظلال القرآن الكريم ٦/٣٨٨١ .

الأمر كأن له فيه شيئاً . ويرفع الفوارق والحواجز بينه وبين الساحة الإلهية التى يقضى فيها الأمر ويبرم .. وكأنما يقول له ربه : إنـــك مأذون فيهم . ولكن أمهلهم . أمهلهم رويداً .. فهو الـــود العطـــوف والإيناس اللطيف . يمسح على الكرب والشدة والعنـــــاء والكيـــد ، فتنمحى كلها وتذوب .. ويبقى العطف والودود "

وقوله سبحانه : **﴿ فاصفح عنـــــهم ، وقـــل ســـلام فســـوف يعلمون﴾** [1] ففى هذه الآية **توجيه ورعاية للرســـول ﷺ بـــ**الصفح والإعراض ، وعدم الاحتفال والمبالاة . والشـــــعور بالطمأنينـــة . ومواجهة الأمر بالسلام فى القلب والسماحة والرضاء . وذلك مـــع التحذير للمعرضين المعاندين مما ينتظرهم .

وهذا التهديد والوعيد بالعذاب الشديد من الله تعـــالى للعـــدو ، وتفويض الأمر إلى الله من أعظم أساليب التسلية والتسريه لـــــهموم الرسول ﷺ ، وتقوية له لتحمل أعباء الرســـالة ، وتجديـــد للحيـــاة والنشاط ، وبث الطمأنينة والأمل فى النصر للنبـــــى ﷺ والدعـــوة الإسلامية .

٤) تسليته بعدم حزنه ﷺ على كفر أعدائه :

كان رسول الله ﷺ يهمه أمر المشركين ويؤذيه تكذيبـــــهم لـــه وللقرآن الكريم ، ويعانى من تكذيبهم وعدم إيمانهم ، وهو يوقن بمـــا

---

[1] سورة الزخرف الآية ٨٩ .

ينتظرهم بعد التكذيب ، فتذوب نفسه عليهم - وهم أهله وعشيرته وقومه - ويضيق صدره .

لذلك خاطب الله تعالى نبيه ﷺ ، معاتبا له على شدة ضيقه فيقول جل ذكره :**﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾** [١] فربه يرأف به ، ويهون عليه الأمر ، ويقول له : إن إيمانهم ليس مما كلفت به ، ولو شئنا أن نكرههم عليه لأكرهناهم ، ولأنزلنا من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالا ولا انصرافا عن الإيمان **﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾** [٢] .

ويقول تعالى : **﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم * إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾** [٣] أى فلا تقتل نفسك أسفا وحزنا عليهم ، إن لم يؤمنوا بهذا القرآن ، وما يستحق هؤلاء أن تحزن عليهم وتأسف .

بهذا يريد الله تعالى أن يبعد عن نبيه وحبيبه المصطفى ﷺ الهموم والأحزان التى قد يتسبب عنها كمد نفسى ومرض جسمانى فيؤثر بدوره على مسار الدعوة وانتشارها ، وحتى يستطيع الرسول ﷺ مواجهة المواقف الصعبة ونشر الدعوة بنفس طيبة وهمة عالية.

---

[١] سورة الشعراء الآية ٣ .

[٢] سورة الشعراء الآية ٤ .

[٣] سورة الكهف الآية ٦ .

٥) تطيب خاطر الرسول ﷺ :

لما كذب المشركون محمدا ﷺ وأصروا على شركهم ، واشتد حزن الرسول ﷺ تحركت السماء ونزل جبريل عليه السلام لتطييب خاطر الصادق الأمين بقوله تعالى : ﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ [1] .

قال القاضى عياض [2] : " ففى هذه الآية منزع لطيف المأخذ من تسليته تعالى له ﷺ وإلطافه فى القول بأن قرر عنده أنه صادق عندهم ، وأنهم غير مكذبين له ، معترفون بصدقه قولا واعتقادا ، وقد كانوا يسمونه قبل النبوة " الأمين " .

فدفع بهذا التقرير ارتماض [3] نفسه بسمة الكذب ثم جعل الذم لهم بتسميتهم " جاحدين " " ظالمين " .

ولا شك أن شهادة الله تعالى له ﷺ بالصدق يقوى من عزيمته ويعينه على تحمل أعباء الرسالة .

٦) خطاب الله تعالى له ﷺ بصفة محمودة :

فمن الملاطفة والتسلية خطاب الله تعالى له ﷺ بصفة محمودة، والعادة جرت أن الإنسان إذا أراد أن يشجع أحدا ويستلهب هممه

---

(١) سورة الأنعام الآية ٣٣ .

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٨٣/١ .

(٣) ارتماض : إقلاق .

ومواهبه يناديه بنداء التكريم وبأحب الأسماء وهـــذا ممـــا يحقــق المطلوب والمراد .

لذلك خاطبه الله تعالى بـــ ﴿ **يا أيها الرســول** ﴾ [1] ، ﴿ **يــا أيها النبى**) [2] ، ﴿ **يا أيها المزمل** ﴾ [3] ، ﴿ **يا أيها المدثر** ﴾[4] ولم يخاطبه باسمه فى حين خاطب الله تعالى جميع الأنبياء عليـــهم الصلاة والسلام بأسمائهم .

فقال : ﴿ **يا آدم أنبئهم بأسمائهم** ﴾ [5] ، ﴿ **يا نــوع اهبــط بسلام منا** ﴾ [6] ، ﴿ **يا إبراهيم قد صدقت الرؤيـا**﴾ [7] ﴿ **يـــا موسى إننى أنا الله** ﴾ [8] ، ﴿ **يا داود إنـــا جعلناك خليفة** ﴾ [9]، ﴿ **يا عيسى إنى متوفيك** ﴾ [10] ، ﴿ **يا زكريا إنا نبشرك** ﴾ [11] ، ﴿**يا يحى خذ الكتاب بقوة** ﴾ [12] .

---

[1] سورة المائدة الآية ٦٧ .

[2] سورة الأحزاب الآية ٤٥ .

[3] سورة المزمل الآية ١٠ .

[4] سورة المدثر الآية ١ .

[5] سورة البقرة الآية ٢٣ .

[6] سورة هود الآية ٤٨ .

[7] سورة الصافات ١٠٤ - ١٠٥ .

[8] سورة طه الآية ١٤ .

[9] سورة ص الآية ٢٦ .

[10] سورة آل عمران الآية ٥٥ .

[11] سورة مريم الآية ١٢ .

[12] سورة مريم الآية ١٢ .

وهذا النداء من الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام بأحب الصفات يحقق المطلوب والمراد وهو المزيد من العمل وتقوية العزيمة فى نشر الدعوة الإسلامية وتحمل أعبائها .

الفصل الخامس

العبادات وأثرها فى إعداد النفس وتزكيتها

ويشتمل على :-

تمهيــــــد

المبحث الأول : أثــر الصــلاة فــى إعــداد النفــس وتزكيتها .

المبحث الثانى : أثــر الصــوم فــى إعــداد النفــس وتزكيتها .

المبحث الثالث : أثر الحـــج فــى إعــداد النفـــس وتزكيتها .

العبادات وأثرها فى إعداد النفس وتزكيتها

تمهيـــــــد :

لقد شرعت العبادات لتذكير الإنسان بالسلطان الإلهى الأعلـــى الذى هو روح العبادة وسرها ، ولكل عبادة من العبادات الصحيحـة أثر فى تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه ، فإذا وجدت صـــورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة .

" والعبادة ليست محصورة فى الصلاة والصيام والحج والزكاة وما يلحق بها من التلاوة والذكر والدعاء والإستغفار كما يتبادر إلى فهم كثير من المسلمين إذا دعوا إلى عباده الله ، وإنما العبادة أســم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقـــوال والأعمـــال الباطنـــة والظاهرة . فالصلاة ، والزكاة ، والصيـــام ، والحـــج ، وصـــدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفـــاء بالعهود ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والجهاد للكفـــار والمنافقين ، والإحسان للجار واليتيـــم والمســكين وابـــن الســبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء ، والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه

وإخلاص الدين له والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه والرضا والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله " [1] .

وعلى ذلك فإن العبادة إذا أديت كما أرادها الله تعالى كان لها عظيم الأثر في إعداد النفس الإنسانية لكل ما يحبه الله ويرضاه ، وإبراز الحكمة الإلهية من التشريعات الإسلامية .

---

[1] العبادة في الإسلام د. يوسف القرضاوى أخذا من رسالة العبودية للإمام ابن تيمية - الطبعة السادسة ، مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان سنة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

المبحث الأول

أثر الصلاة في إعداد النفس وتزكيتها

إن آثار الصلاة ونتائجها هى مـــا أنبأنا الله تعالى بهـــا بقولـــه: ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [1] ، وروى عن ابن عباس – رضى الله عنه – قال : " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا " [2] .

فإن قال قائل : كم من مصل يرتكب ولا تنهاه صلاته .

أجاب الزمخشرى قائلاً : " الصلاة التى هى الصلاة عنـــد الله المستحق بها الثواب أن يدخل فيها مقدّما للتوبة لقوله تعالى :﴿إنمـا يتقبل الله من المتقين ﴾ [3] ويصليها خاشعاً بالقلب والجوارح "[4].

ويروى عن حاتم الأصم – رضى الله عنه – أنه ســئل عـــن صلاته فقال : " إذا حـــانت الصلاة أســـبغت الوضـــوء وأتيـــت الموضع الذى أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحى ، ثم أقوم إلى صلاتى وأجعل الكعبة بين حاجبى ، والصراط تحـــت قدمـــى ،

---

[1] سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

[2] أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره ٢٠/٩٩ .

[3] سورة المائدة الآية ٢٧ .

[4] أنظر الكشاف للزمخشرى ٣/١٩٢ .

عن يمينى ، والنار عن شمالى ، وملك الموت ورائى أظنها آخـــر صلاتى ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف ، وأكبر تكبيرا بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل وأركع ركوعا بتواضع وأسجد سجودا بتخشع .. ثم لآ أدرى أقبلت منى أم لا " [١] .

والصلاة تهذيب للنفس ، وتعويد لها على الصبر . قال تعالى : **﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾**[٢]

وقد تكرر الإستعانة بالصبر كثيرا فى القرآن الكريـــم ؛ فـــهو الزاد الذى لابد منه لمواجهة كل مشقة .

قال الشيخ سيد قطب [٣] : " يتكرر ذكر الصبر فـــى القــرآن كثيرا ؛ ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجـــهد الـــذى تقتضيـــه الإستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع ؛ والذى يقتضيـه القيام على دعوة الله فى الأرض بين شتى الصراعات والعقبـــات ، والذى يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب ، مجندة القـــوى ، يقظة للمداخل والمخارج .. ولا بد من الصبر فى هذا كله .. لا بـــد من الصبر على الطاعات ، والصبر على المعـــاصى ، والصـــبر علـــى جهاد المشاقين لله ، والصبر على الكيد بشـــتى صنوفـــه ، والصبر على بطء النصر ، والصبر على بعد الشقة ، والصبر على

---

(١) أنظر إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ١٧٩/١ .

(٢) سورة البقرة الآية ٤٥ .

(٣) فى ظلال القرآن ١٤١/١ ـ ١٤٢ .

انتفاش الباطل ، والصبر على قلة الناصر ، والصبر علــى طــول الطريق الشائك ، والصبر على التواء النفوس ، وضلال القلــوب ، وثقلة العناد ، ومضاضة الإعراض .

وحين يطول الأمد ، ويشق الجهد ، قد يضعف الصـــبر ، أو ينفذ ، إذا لم يكن هناك زاد ومدد . ومن ثم يقــرن الصــلاة إلــى الصبر ؛ فهى المعين الذى لا ينضب ، والزاد لا ينفذ . المعين الذى يجدد الطاقة ، والزاد الذى يزود القلــب ، فيمتــد حبــل الصــبر ولا ينقطع . ثم يضف إلى الصبر ، الرضى والبشاشة ، والطمأنينة، والثقة ، واليقين " أ .هـــ .

إن الصلاة صلة ولقاء بين العبد وربه . شرعت ليلة المعــراج لتكون معراجا يرقى بالناس كما تدلـــت بــهم شــهوات النفــوس وأعراض الدنيا ، وتجد فيها النفس زادا أنفس من أعراض الدنيا .. ولقد كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة .

٢) أثر الزكاة فى تزكية النفس :

إن آثار الزكاة ونتائجها تتحقق فى قوله تعالى : ﴿ **وقــال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتــم الزكــاة وآمنتــم برســلى ، وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفــرن عنكــم ســيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكــم فقد ضل سواء السبيل** ﴾[١] .

---

[١] سورة المائدة الآية ١٢ .

لقد وعد الله بماعيته مع الذين اتصفوا بصفات منهم الذين يؤتون الزكاة ، ومن كان الله معه فلا شئ إذن ضده . ومن كان الله معه فلن يضل طريقه ، فإن معية الله سبحانه تهديه إلى إعداد نفسه وأمته كما أنها تكفيه كيد أعدائه أعداء الإسلام .

وبإيتاء الزكاة يتحقق التكافل الاجتماعى الذى على أساسه تقوم حياة المجتمع المؤمن ، وإقامة أسس الحياة الإقتصادية على المنهج الذى يكفل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، وألا يكون تكدس المال فى أيد فئة قليلة سببا فى الكساد العام يعجز الكثرة عن الشراء والإستهلاك ، كما يفضى إلى الترف ، وإلى الفساد والإختلال فى المجتمع بشتى ألوانه . كل هذا يحول دون منهج الله فى توزيع المال .

والزكاة تزكى نفس معطيها من البخل ، وتزكى نفس آخذها من الغل ، وتجعل الحياة فى المجتمع المسلم لائقة بالبشر المتعاونين.

كما أن الإنفاق فى السر والعلانية كما قال رب العزة : ﴿ **وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية** ﴾[1] ففى السر تصان كرامة المرء ، ولا تحرج النفس من الإعلان . وفى العلانية لطلب الأسوة وتنفيذ الشريعة .

---

[1] متفق عليه أخرجه البخارى ومسلم .

وفى أداء الزكاة انتصار على شح النفس ، وتطهير لها من الحرص ، وكفالة الضعاف والمحتاجين قال رسول الله ﷺ : " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " [1].

المبحث الثانى

أثر الصوم فى إعداد النفس وتزكيتها

إن أثر الصوم ونتائجه تتحقق فى قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ [2] .

فالغاية الأولى من الصوم هى إعداد قلوب العباد للتقوى والشفافية والحساسية والخشية من الله تعالى . ولذلك خصه الله بالإضافة إليه ، كما ثبت فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال مخبرا عن ربه : " يقول الله تبارك وتعالى كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به "[3].

وإنما خص الصوم بأنه له وإن كانت العبادات كلها له لأمرين:

أحدهما : أن الصوم سر بين العبد وبين ربه لا يظهر إلا له تعالى.

---

(1) متفق عليه أخرجه البخارى ومسلم .

(2) سورة البقرة الآية ١٨٣ .

(3) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الصيام . باب فضل الصيام ٨/٣٠ ، ٣١ شرح النووى .

الثانى : أن الصوم يمنع من ملاذ النفس وشهواتها مالا يمنع منـــه سائر العبادات .

قال الراغب [١] : " للصوم فائدتان رياضة الإنسان نفسه عـــن مـــا تدعوه إليه من الشهوات ، والإقتداء بـــالملأ الأعلـــى علـــى قـــدر الوســـع" أ . هـــ .

فالصوم يعود الصبر ويقوى عليه ، ويعلم ضبط النفس ويساعد عليه ، ويوجد فى النفس ملكة التقوى ويربيها ، وبخاصة التقـــوى التى هى العلة البارزة من الصوم . فى قوله تعـــالى ﴿ **.. لعلكـــم تتقون** ﴾ .

وهكذا تبرز الغاية الكبيرة من الصـــوم .. إنـــها التقـــوى .. فالتقوى هى التى تستيقظ فى القلوب وهى تؤدى هـــذه الفريضـــة ، طاعة الله ، وإثارا لرضاه . والتقوى هى التى تحرس هذه القلـــوب من إفساد الصوم بالمعصية ، ولو تلك التى تـــهجس فـــى البـــال ، والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله ، ووزنها فـــى ميزانه . فهى غاية تتطلع إليها أرواحهم . وهذا الصـــوم أداة مـــن أدواتها ، وطريق موصل إليها . ومن ثم يرفعـــها السـياق أمـــام عيونهم هدفا وضيئا يتجهون إليه عن طريق الصيام [٢] .

وأبرز نتائج الصوم أنه يعود الأمـــة حب العدل ، والمســـاواه

---

[١] أنظر البحر المحيط لأبى حيان ١٧٩/٢ .

[٢] فى ظلال القرآن الكريم ١٦٨/٢ .

بالآخرين ، ويكون فى المؤمنين عاطفة الرحمة وخلق الإحسان ، كما يصون المجتمع من الشرور والمفاسد .

المبحث الثالث

أثر الحج فى إعداد النفس وتزكيتها

إن الحج نوع آخر من العبادة فى الإسلام تتجلى فيه معان خاصة ليست فى بقية العبادات الأخرى , فهو تخل مؤقت عن الأهل والمال والولد وعن الزينة المعهودة المباحة فى اللباس والهيئة .

ومع ذلك فإن هذه العبادة المتجردة الخالصة ليست متعزلة عن الحياة بل متصلة بها، وأثر الحج ونتائجه تتحقق فى قوله تعالى: **﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معدودات ﴾** (١) وقول الرسول ﷺ : " من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه " (٢) .

وعلى هذا ففى الحج معنى الخضوع لأوامر الله أولا ، وترمز ثانياً إلى التوجه إلى الله والسعى إليه ، وإلى وحدة المسلمين فى وجهة حركتهم واتجاه سيرهم ، فى طوافهم وسعيهم ووحدتهم فى عداوتهم للبشر ومحاربتهم لأهله.

وفى الحج تزكية للنفس حيث تتجرد لعبادة الله ، وتحمل المشاق ، والتخلى عن كثير مما يعز على الإنسان ، أو مما ألفه

---

(١) سورة الحج الآية ٢٨ .

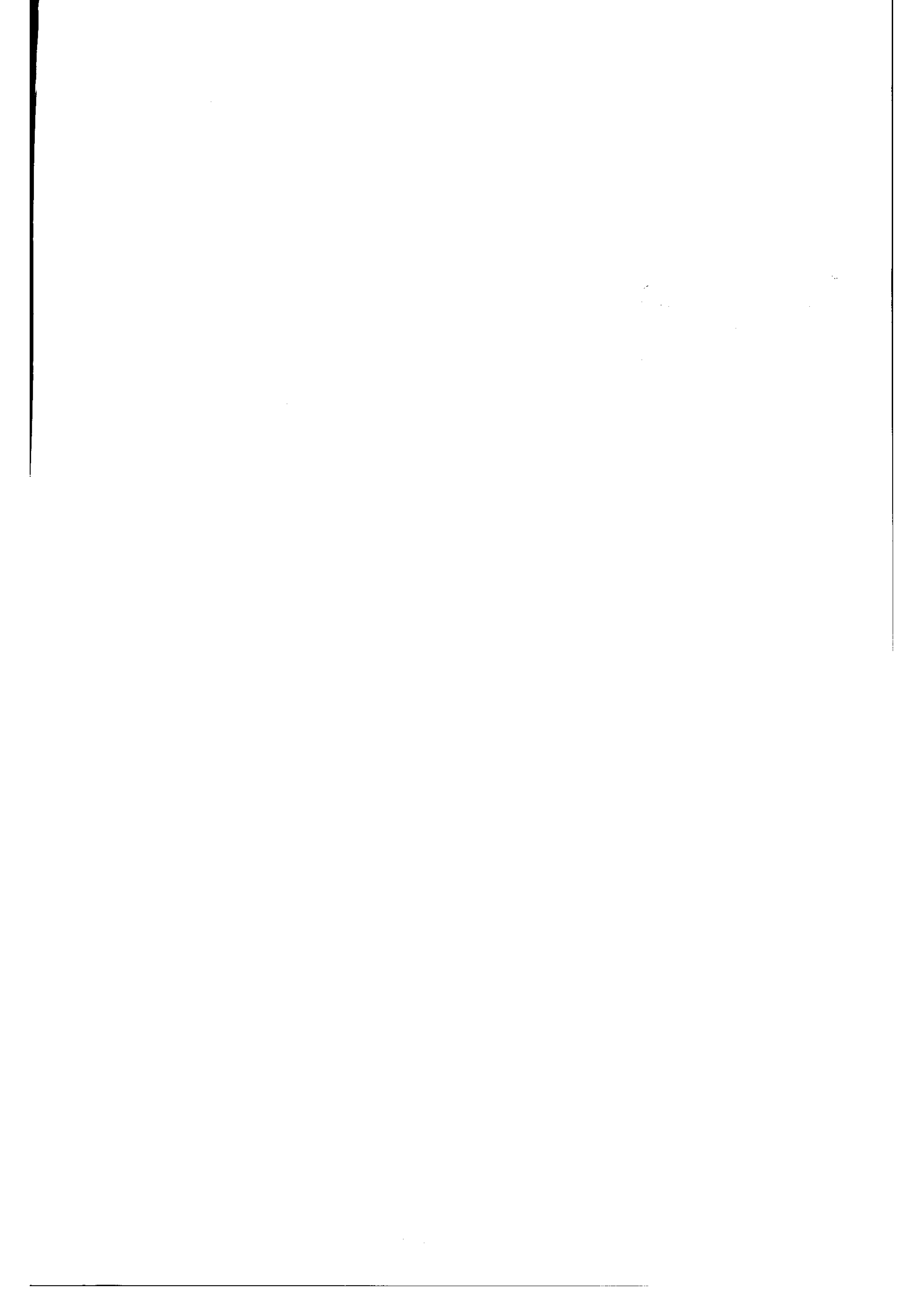
(٢) أخرجاه البخارى ومسلم فى صحيحهما .

واعتاده ، وفيه تحقق معنى الإنسانية الواحدة في هذه الجموع البشرية الهائلة على اختلاف أجناسها وألوانها ، ولا تميز بين فرد وفرد ، ولا بين طبقة وطبقة ، ولا بين لون ولون ، وجنس وجنس، وبذلك تزكى النفس الإنسانية .

<u>الخلاصة</u> :

إن الأخلاق هى ثمرة العبادات ، ومنطلق الأخلاق هو الإيمان بالله وباليوم الآخر ومن كل ما تقدم نستطيع أن نقول إن الهدف من العبادات الإسلامية تقوية الإنسان فى معارك الحياة ؛ حيث إن الحياة صراع بين الحق والباطل ، والعبادة هى التى تزكى النفس الإنسانية وتجعل الإنسان قويا فى هذه المعركة ، إذ تذكره بالله الباقى القوى ، وبمسئوليته العظمى أمامه ، وبحياته الآخرة الباقية ، وما يترتب فيها على أعماله من جزاء .

ورسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة فى قيامه بالعبادات التى فرضها الله تعالى على العباد ، فكانت الهادى والمعين له على تحمل أعباء الرسالة ونشر الدعوة الإسلامية .



الفصل السادس

الذكر وفضله فى إعداد الدعوة المحمدية

تمهيد :

إن أعدى وأثقل شئ على الإنسان الهم ، فـــهو يـؤدى إلـــى الأمراض البدنية والنفسية ، بل تأثيره فيها أكثر .

وقد قيل : من كثر همه سقم بدنه .

ولقد أثبت العلم الحديث أن الهم والغم والقلق له تـــأثير علـــى البدن مما يؤدى إلى عجز الإنسان ، وعدم قيامه بوظائفـــه التـــى تسند إليه .

ولكن الله تعالى عالج هذا المـــرض وبيَّـــن أن رأس الأدويـــة وأهمها هو ذكر الله تعالى فهو الذى يمد النفس الإنسانية بالسـكينة ، والطمأنينة ، والصحة النفسية وبالتالى يتخلص البدن من أسـقامه . وهذا ما أشار إليه القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبـــهم بذكـــر الله ألا بذكـــر الله تطمئـــن القلـــوب** ﴾[1] **يقـــول الألوسى**[2]: " إن سبب الطمأنينة نور يفيضه الله تعالى على قلـــب المؤمنين بسبب ذكره فيذهب ما فيها من القلق والوحشة ونحو ذلك " أ.هـــ .

---

[1] سورة الرعد الآية ٢٨ .

[2] فى روح المعانى ١٣/١٥٠ .

معنى الذكر :

الذكر : الحفظ للشئ تذكُره . وهو أيضاً : الشئ الذى يجرى على اللسان [١] .

وهو : استغراق الذاكر فى شهود المذكور ، ثم استهلاكه فـــى وجود المذكور حتى لا يبقى منه إلا أثر يذكر ، فيقـــال قـــد كـــان فلان[٢].

وفى المنتخب [٣] ما ملخصه : الذكر يكون باللســـان : وهـــو الحمد ، والتسبيح والتمجيد ، وقراءة كتاب الله ، وبالقلب ، وهـــو : الفكر فى الدلائل الدالة على التكاليف ، والأحكام ، والأمر ، والنهى ، والوعد، والوعيد ، والفكر فى الصفات الإلهيـــة ، والفكـــر فـــى أسرار مخلوقات الله تعالى حتى تصبر كل ذرة كـــالمرآة المجلـــوة المحاذية لعالم التقديس ، فإذا نظر العبد إليها ، انعكس شعاع بصره منها إلى عالم الجلال ، وبالجوارح ، بأن تكـــون مســـتغرقة فـــى الأعمال المأمور بها ، خالية عن الأعمال المنهى عنها . وعلى هـذا الوجه ، سمى الله الصلاة ذكراً بقوله : ﴿ **فاســـعوا إلـــى ذكـــر الله** ﴾ ا. هـــ [٤].

---

[١] لسان العرب ٣٠٨/٤ .

[٢] انظر البحر المحيط ٤٩/٢ نقلاً عن القشيرى .

[٣] المرجع السابق .

[٤] سورة الجمعة الآية ٩ .

وقال الإمام النووى [1]: " المراد من الذكر حضور القلـــب ، فينبغى أن يكون هو مقصود الذاكر فيحرص على تحصيله ، ويتدبر ما يذكر ، ويتعقل معناه "

وذلك لتكمل فائدة الذكر وما يترتب عليه من ثواب وإلا فلا .

وقال الشيخ سيد قطب[2] : " وذكر أسم الله ، ليس مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان ، على عدة المسبحة المئوية أو الألفيـــة ! إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر ، أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها ".

ولا خلاف بين هذه المعانى كلـــها – فحقيقتـــها ترجـــع إلـــى استغراق الفكر فى الصفات الإلهية ، وفى أسرار مخلوقـــات الله ، واستحضار عظمته تعالى وجلاله فى القلب ، ثم ترجمة اللسان لكل هذه المشاعر من الرهبة والخشية ، والخوف والرجاء .

مراتب الذكر :

وللذكر مراتب ثلاثة :

المرتبة الأولى : بالقلب واللسان معاً .

المتربة الثانية : بالقلب وحده .

المتربة الثالثة : باللسان وحده .

---

[1] فى الأذكار ص ١٩ .

[2] فى ظلال القرآن ٣٧٤٦/٦ .

إن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب ، فأما الذكر باللسان والقلب لا فهو قليل الجدوى .. وحضور القلب في لحظة بالذكر والذهول عن الله عز وجل مع الإشتغال بالدنيا أيضاً قليل الجدوى . بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدم على سائر العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية [1].

وقيل : ذكر اللسان وحده دون ذكر القلب وملاحظة معاني القول لا يجدى نفعاً ، فكم رأينا من ذوى الأوراد والأدعية الذين يذكرون الله كثيراً بالمئين والآلاف ولا يفيدهم ذلك معرفة بالله ولا مراقبة له ، لأن ذلك أصبح عادة لهم تصحبها عادات أخرى منكرة، ومن ثم كان الواجب الجمع بين ذكر القلب وذكر اللسان [2].

ولكنى أستنكر " أن عادة الذكر تصحبها عادات أخرى منكرة" فهؤلاء خارجون عن دائرة الذاكرين لله ، بل ذاكرين من أجل الناس فذكرهم رياء من أجل مصلحة دنيوية والعياذ بالله .

ألا ترى أن الإنسان إذا واظب على عمل من الأعمال وكرره مرات ومرات حصلت له ملكة قوية راسخة تؤثر على النفس ، ومن هنا فإن ذكر اللسان لا يصحبه عادات منكرة .

---

(1) أنظر إحياء علوم الدين ٣٥٧/١ .

(2) أنظر تفسير المراغى ١٥٦/٩ .

وقال الإمام النووى [1]:

" الذكر يكون بالقلب ، ويكون باللسان ، والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعاً ، فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل ."

وذكر الإمام النووى [2] نقلاً عن القاضى عياض :

" ذكر الله تعالى ضربان :

- ذكر بالقلب .

- وذكر باللسان .

وذكر القلب نوعان :

أحدهما : وهو أرفع الأذكار ، وأجلها الفكر فى عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وملكوته وآياته فى سماواته وأرضه ومنه الحديث خير الذكر الخفى والمراد به هذا .

والثانى : ذكره بالقلب عند الأمر والنهى فيمتثل ما أمر به ويترك ما نهى عنه ويقف عما أشكل عليه .

وأما ذكر اللسان مجرداً فهو أضعف الأذكار ولكن فيه فضل عظيم كما جاءت به الأحاديث " .

وأضاف المصنف [3] نقلاً عن القاضى عياض قال : " وذكر ابن جرير الطبرى وغيره اختلاف السلف فى ذكر القلب واللسان

---

[1] أنظر الأزكار ص ١٥ .

[2] أنظر شرح النووى على صحيح مسلم ١٥/١٧ .

[3] نفس المرجع السابق ١٥/١٧ - ١٦ .

أيهما أفضل . قال القاضى عياض : والخلاف عندى إنما يتصور فى مجرد ذكر القلب تسبيحاً وتهليلا وشبههما ، وعليه كلامهم ، لا أنهم اختلفوا فى الذكر الخفى الذى ذكرناه أولا، وإلا فذلك لا يقاربه ذكر اللسان فكيف يفاضله ؟ وإنما الخلاف فى ذكر القلب بالتسبيح المجرد ونحوه . والمراد بذكر اللسان مع حضور القلب فإن كان لاهياً فلا . واحتج من رجح ذكر القلب بأن عمل السر أفضل . ومن رجح ذكر اللسان قال : لأن العمل فيه أكثر فإن زاد بإستعمال اللسان اقتضى زيادة أجر ."

ويتبين لنا مما سبق : أن الذكر الكامل وأفضله : هو ما اجتمع فيه ذكر اللسان والقلب معاً . بالتفكير فى المعنى بما ينطق به اللسان ، واستحضار عظمة الله تعالى .

ولكن ليس معنى ذلك أن نترك ذكر الله باللسان لعدم حضور القلب .

فقد قال ابن عطاء الله السكندرى [١] : " لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك فيه ، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره ، فعسى أن يرفعك الله من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود

---

[١] فى الحكم العطائية ص ٥٥ . شرح وتحقيق مهندس / محمود عبد الوهاب – ط : دار المدينة المنورة – القاهرة .

حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عمـــا ســوى المذكور ، وما ذلك على الله بعزيز " أ.هـــ .

وهكذا يؤدى الذكر باللسان مع الغفلة فيه إلى مرتبة عاليـــه وهـــى الغيبة عما سوى المذكور. كما أن شغل اللسان بالذكر يمنعه من الوقوع فى المحرمات مثل الغيبة والنميمة وغيرهما ، وأنا أميل إلى هذا الرأى.

كيفية الذكر :

إن لكل عبـــادة كيفية تؤدى بـــها وآداب تشتمل عليها حتى تتـــم على أكمل وجه وتكون خالصة لله .

ومن العبادة .. **الذكر** .

قال تعالى : ﴿ **واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفـــة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين** ﴾ (١) .

لقد حدد الله تعالى فى هذه الآية . كيفية الذكر . وبين أنه لا بد فيها من التضرع . وهو الخشوع والخوف مـــن الله ســبحانه ، وأن يتمثــل الذاكر حسن الأدب مع الله عز وجل ، فلا يرفع صوته حتى يزيد عـــن حده ولا يسر به إسرار يقلل من أهمية الذكر .

وكما قال ﷺ للصحابة وقد جهروا بالدعاء : " أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، ولكـــن تدعـــون ســميعا بصيرا " (٢) .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٠٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الدعوات . باب الدعاء إذا علا عقبـة ٤٤٣/١٣ من الفتح .

- كما يجب على الإنسان أن يكون فى صورة حسنة وهيئة طيبة لا يخرج عن حدود الذل مع العزيز أبدا ، ولا يتصرف تصرف المجانين والفوضويين الذين يخرجون عن حدود الخشوع والضراعة ، والأدب مع ربهم [1].

- يستحب أن يكون الذاكر على أكمل الصفات ، فإن كان جالسا فى موضع استقبل القبلة وجلس متذللا متخشعا بسكينة ووقار مطرقا رأسه قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ [2] . ولو ذكر على غير هذه الأحوال جاز ولا كراهة فى حقه ، لكن إن كان بغير عذر كان تاركا للأفضل . والدليل على عدم الكراهة قول الله تعالى : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض** ﴾[3]

- قال الإمام النووى [4] : ينبغى أن يكون الموضع الذى يذكر فيه خاليا [5] نظيفا فإنه أعظم احتراما للذكر والمذكور ، ولهذا مدح

---

[1] **منهج القرآن فى إعداد النبى ﷺ لتحمل مسئولية الرسالة كما تصوره سورة المزمل ص ١٦١ .**

[2] **سورة الأنفال الآية ٢ .**

[3] **سورة آل عمران الآية ١٩١ .**

[4] **انظر الأذكار ص ١٨ .**

[5] **خاليا : أى عن كل ما يشغل البال ويحصل من وجوده الإشتغال والوسواس .**

الذكر فى المساجد والمواضع الشريفة ، وجاء عن الإمام الجليل أبى ميسرة ﷺ قال : لا يذكر الله تعالى إلا فى مكان طيب .

- وأضاف قائلاً : وينبغى أيضاً أن يكون فمه نظيفاً ، فإن كان فيه تغير أزاله بالسواك ، وإن كان فيه نجاسة أزالها بالغسل بالمـــاء ، فلو ذكر ولم يغسلها فهو مكروه ولا يحرم [١].

- يستحب جلوس أهل الذكر فى حِلَق ، والدليل على ذلك ما روى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رســـول الله ﷺ : " إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : ومـــا ريـــاض الجنــة يا رسول الله ؟ قال : حِلَقُ الذكر ، فإن لله تعـــالى ســـيارات مـــن الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم " [٢] .

وروى عن معاوية ﷺ أنه قال : " خرج رسول الله ﷺ على حلقــة من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى ونحمـــده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا ، قال : الله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ أما إنى لم استحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله تعـــالى يباهى بكم الملائكة " [٣] .

أقول : بشرط أن تتسم حلقات الذكر بالســـكينة والهيبـــة والوقـــار والإحترام ، وليست كما يحدث فى بعض الريف من ضرب الدفوف

---

[١] الأزكار ص ١٨ .

[٢] الأزكار للإمام النووى ص ١٤ ، وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٣/١٥٠ .

[٣] الأزكار ص ١٤ .

والتمايل يميناً وشمالاً – فليس هذا داخلاً فى الكيفية التى سبق أن ذكرناها .

هذه هى الكيفية التى يجب أن يكون عليها الذاكر ، لتتفق مع جلال صاحب الذكر .

أوقات الذكر :

لقد أنعم الله تعالى على الإنسان بنعم عظيمة وجليلة قال تعالى : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ [1] فلا بد من شكره وإجلاله وتعظيمه على هذه النعم بالعبادة والذكر عبادة من العبادات، يربط الإنسان بربه فى كل وقت يعيش فيه .

لذا لم يحدد الله تعالى وقتاً معيناً لذكره قال تعالى : ﴿ **فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم** ﴾ [2] أى بالليل والنهار ، وفى السفر والحضر ، وفى السر والعلانية ، فى البر والبحر ، والغنى والفقر ، والصحة والسقم وعلى كل حال .

وروى عن عروة عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : " كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه " [3] .

وهذا يدل على استغراق الذكر لجميع أوقاته ﷺ .

---

[1] سورة إبراهيم الآية ٣٤ .

[2] سورة النساء الآية ١٠٣ .

[3] أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب الدعاء . باب ما جاء فى دعوة المسلم مستجابة ٤٦٣/٥ ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

وقال الإمام القشيرى : " من خصائص الذكر أنه غير مؤقت ، بل ما من وقت من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله فيه ؛ إما فرضاً وإما ندباً . والصلاة وإن كانت أشرف العبادات فقد لا تجوز فى بعض الأوقات . والذكر بالقلب مستدام فى جميع الحالات " [1].

وروى عن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : " من قعد مقعداً لم يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله تِرَةُ [2] ومن اضطجع مضجعاً لا يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله تعالى تِرَةُ " [3] .

وهذا يدل على كراهية الجلوس فى مجلس بدون ذكر الله وإلا يكون عليه تبعة .

أما تحديد الذكر فى وقت الغداة والعشى فى قوله تعالى : **﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾** [4] .

وقوله : **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾** [5] .

---

[1] أنظر ذكر الله للدكتور / الحسينى أبو فرحه ص ٩٦ ، نقلاً من الرسالة القشيريه ص ١١٢ .

[2] تِرَةُ : بكر التاء ، وفتح الراء . ومعناها : نقص ، وقيل : حسرة وندامة .

[3] أخرجه أبو داود ، والترمذى فى سننه . كتاب الدعاء . باب فى القوم يجلسون ولا يذكرون الله ٥/٤٦١ .

[4] سورة الكهف : الآية ٢٨ .

[5] سورة الأنعام الآية ٥٢ .

وفى وقت البكرة والأصيل فى قوله تعالى : ﴿ وأذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ﴾ [1] .

وقوله : ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ [2] .

فالمراد جميع الأوقات موزعة على الآيات السابقة .

لأن البكرة والغدو : أول النهار .

والعشى : ما بين زوال الشمس وغروبها .

والآصال : جمع أصيل : وهو بين العصر والمغرب .

وهذه الأوقات كناية عن جميع الأوقات .

وكل وقت وكل عمل يقوم به الإنسان له ذكر يتناسب معه – وكما أن الذكر محبوب فى جميع الأوقات – وهو أيضاً محبوب فى جميع الأحوال عدا أحوال ورد الشرع باستثنائها .

من ذلك : أنه يكره الذكر حالة الجلوس لقضاء الحاجة ، وفى حالة ، النعاس [3].

---

[1] سورة الإنسان الآية ٢٥ .

[2] سورة النور الآية ٣٦ .

[3] منهج القرآن فى إعداد النبى ﷺ لتحمل مسئولية الرسالة كما تصوره سورة المزمل ص ١٦٦ – ١٦٧ .

فضل الذكر :

إن الذاكر لله تعالى الذى يكون مستحضراً لعظمته تعالى وجلالـــه فى قلبه ، ومترجماً بلسانه كل هذه المشـــاعر مـــن الرهبـــة والخشـــية والخوف والرجاء ، يناله فضلاً ما بعده فضل ، وفضائل الذكر كثـــيرة منها :

١) **ذكر الله للذاكر** : قال تعالى : ﴿ **فـــاذكرونى أذكركـــم** ﴾ [١] .

وروى عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " يقول الله عـــز وجل أنا عند ظن عبدى وأنا معه حين يذكرنى فإن ذكرنى فـــى نفســـه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن اقترب إلـــى شبراً تقربت إليه ذراعـــاً ، وإن اقترب إلى ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة " [٢] .

وقال ثابت البنانى : " إنى أعلم متى يذكرنى ربى عز وجل ، ففزعوا منه ، وقالوا : وكيف تعلم ذلك ؟ فقال : إذا ذكرته ذكرنى ، قال تعالى : ﴿ **فاذكرونى أذكركم** ﴾ [٣] .

ولكن ذكر الله أفضل وأتم لقوله تعالى : ﴿**ولذكر الله أكبر**﴾[٤]

---

[١] سورة البقرة الآية ١٥٢ .

[٢] أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الذكر والدعاء ١٧/١٢ شرح النووى ، والبخارى كتاب التوحيد .

[٣] ذكر الله . للدكتور الحسينى أبو فرحه ص ٥٧ .

[٤] سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

يقول الدكتور الحسينى أبو فرحه : " وشتان بين ذكر العبد للرب ، وذكر الرب للعبد ، إن ذكر العبد للرب هو ذكر الفانى للباقى ، والفقير للغنى ، وذكر الرب جل شأنه للعبد إنما هو بنفحاته وألطافه وهباته من خزائنه التى لا تنفذ سبحانه وتعالى " (١) .

٢) **أن ذكر الله أفضل درجة عند الله تعالى يوم القيامة** ، عن أبى سعيد الخدرى ﷺ " أن رسول الله ﷺ سئل : أى العبادة أفضل درجة عند الله تعالى يوم القيامة ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً ، قلت يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله عز وجل ؟ قال : لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون الله أفضل منه " (٢) .

٣) **إن ذكر الله هو خير الأعمال عند الله وأفضلها** ، روى عن أبى الدرداء ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى قال : ذكر الله تعالى ، فقال معاذ ابن جبل ﷺ : ما شئ أنجى من عذاب الله من ذكر الله " (٣).

---

(١) ذكر الله . للدكتور الحسينى أبو فرحه ص ٥٨ .

(٢) الأزكار ص ٢٥ .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب الدعاء . باب ما جاء فى فضل الذكر ٤٥٩/٥ ، والترغيب والترهيب . كتاب الذكر والدعاء ٢٠٣/٣ ، والأذكار ص ٢٥ .

بمعنى أن الإنسان إذا ذكر ربه على الدوام ، وكان على ثقة وثيقة بربه ، ويعلم أن الله يرقبه ويراه فى كل خطوة يخطوها وكل عمل يعمله وكل تصرف يسلكه . لا شك أن أعماله وتصرفاته تتسم بالصلاح والإخلاص . ولو أن كل فرد فعل ذلك لا نصلح حال المجتمع بأسره .

٤) ذكر الله يؤدى إلى الأجر العظيم وينجى من عذاب الدنيا والآخرة .

قال تعالى : **﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ..﴾** إلى قوله تعالى : **﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾** [1] .

وروى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فُضُلا يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملئوا ما بينهم وبين السماء الدنيا فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء . قال فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم بهم من أين جئتم فيقولون جئنا من عند عباد لك فى الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك قال : وماذا يسألونى ، قالوا : يسألونك جنتك . قال : وهل رأوا جنتى . قالوا : لا أى رب . قال: فكيف لو رأوا جنتى . قالوا : ويستجيرونك . قالوا : ومم يستجيروننى ، قالوا :

---

[1] سورة الأحزاب الآية ٣٥ .

من نارك يا رب . قال : وهل رأوا نارى . قـــالوا : لا . قـال : فكيف لو رأوا نارى . قالوا ويستغفرونك . قال : فيقول قد غفـرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا . قال : فيقولون رب فيهم فلان عبد خطاء إنما مر فجلس معهم قال : فيقول وله غفـرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم [١] .

٥) إن ذاكر الله يظله الله فى ظله يوم القيامة .

روى عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : " سبعة يظلـهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل . وشاب نشـأ فـى عبادة ربه . ورجل قلبه معلق فى المساجد . ورجلان تحابا فـى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه . ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمـال فقال إنى أخاف الله . ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله مـا تنفق يمينه . ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه " [٢] .

وقيل : المراد ظل عرشه [٣] .

وإذا كان المراد ظل عرشه اســتلزم كونــه فــى كنـف الله وكرامته، ومن كان فى هذه المكانة فلا خوف عليه .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الذكر والدعاء . باب مجالس الذكـر ١٧/١٢-١٥ شرح النووى .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الآذان . باب من جلس فـى المسـجد ينتظـر الصلاة وفضل المساجد ٢٨٣/٢- ٢٨٨ فتح البارى .

(٣) ابن حجر فى فتح البارى ٢٨٥/٢ .

٦) ذكر الله يحقق طمأنينة القلوب وراحة البال :

قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ (١)

وليس أشقى فى هذه الحياة ممن يحرمون الطمأنينة وراحة البال ، مع أنهم يعيشون فى رغدة من مال وجاه وحسب ونسب ، ولكنهم دائماً فى هم وغم وكآبة وقلق وحيرة ولا يدرون السبب ! إنه الحرمان من طمأنينة الأنس بالله ، ولا يكون إلا بذكر الله تعالى .

٧) الذكر مطردة للشيطان .

قال تعالى : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** ﴾(٢) .

يقول ابن كثير :" يأمر تعالى بالإستعاذة به من العدو الشيطانى لا محالة ، إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانا . ولا يبتغى غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم " (٣) .

وروى عن أنس ﷺ عن النبى ﷺ قال : " إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ؛ فإن ذكر الله خنس ، وإن نسى التقم قلبه " (٤) .

---

(١) سورة الرعد الآية ٢٨ .

(٢) سورة فصلت الآية ٣٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ١٣/١ .

(٤) رواه ابن أبى الدنيا ، وأبو يعلى ، والبيهقى . الترغيب والترهيب ٢٠٧/٣ .

وعن جابر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله قال الشيطان : أدركتم المبيت ، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء "[1] .

وبعد – فإن للذكر فضائل كثيرة ، وما ذكرته فهو إشارات ولكنى آثرت عدم الإسهاب لأنه ليس موضع البحث .

الذكر عون ومدد للرسول ﷺ في السلم والحرب :

ولما كان لذكر الله تعالى هذا المكسب الكبير ، وهذا الفضل العظيم للذاكر . ويقابله الخسران الكبير الذى ينال المقل أو المعرض عنه ، فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ والأمة معه ممثله فى شخصه بالإكثار من ذكره عز وجل طرفى النهار لئلا يكون من الغافلين عن ذكره تعالى فقال جل ذكره ﴿ **واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين** ﴾[2] .

جاء فى حديث هند بن أبى هاله وهو يصف الرسول ﷺ فقال:"وكان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله"[3] .

---

[1] أخرجه مسلم فى صحيحه .

[2] سورة الأعراف الآية ٢٠٥ .

[3] أنظر الشفا ٣١١/١ .

كما أمره إذا نسى شيئاً من كلامه أن يذكر الله عز وجـــل لأن النسيان منشؤه الشيطان ، وذكـــر الله تعالـــى يطرد الشيطـــان قال تعالى : ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ [1] . أى إذا نسيت شيئاً مـــن الأشياء فاذكر الله عز وجل . وفى هذا تعهد من الله تعـــالى لنبيـــه بحفظه من النسيان فبين له كيفية العلاج منه .

كذلك أمر الله تعالى نبيه والمؤمنين معه بالذكر عند لقاء العدو، ذلك أن ذكر الله آنذاك من أهم عوامل النصر فى المعركـــة فقـــال تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فـــاثبتوا وأذكـــروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾ [2] . والمعنى أن يكثروا من ذكـــر الله فى أشد أحوالهم ، ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ، ويســـألوه النصر على أعدائهم لأن النصر لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى .

قال ابن عباس : أمر الله أولياءه بذكر الله فى أحوالهم تنبيـــها على أن الإنسان لا يجوز أن يخلى قلبه ولسانه عن ذكر الله ، ولـــو أن رجلاً أقبل من المغرب إلى المشرق ينفـــق الأمـــوال ســـخاء ، والآخر من المشرق إلى المغرب يضرب فى سبيل الله ، كان الذاكر لله أعظم أجراً " [3] .

---

[1] سورة الكهف الآية ٢٤ .

[2] سورة الأنفال الآية ٤٥ .

[3] تفسير الفخر الرازى ١٥/١٧١ .

هذا وقد تعددت الآيات التى تأمر بالذكر لينـــهض النبـــى ﷺ بالمسئولية . مسئولية الرسالة التى كلفه الله بها ، وليستشعر بـالأنس والطمأنينة والسلام ، ويحس أنه فى هـــذا الوجــود ليـــس مفــرداً بلا أنيس ، بل الله معه ، وليستمد من الذكر القوة والزاد فى طريقـه الشاق .

الفصل السابع

إعداد الدعاة لحماية الإسلام

إن التبليغ عن الله تعالى والدعوة إليه عمل كل رســـول مـــن رسل الله تعالى ووظيفته الأساسية التى من أجلها ابتعثه الله تعالى .

وإن الدعاة إلى الله والعلماء فى كل جيل هم ورثة الأنبياء فـــى هذا العمل ، وهى دعوة الناس إلى الله وإلى الحق والخير والـــهدى وإلى كل ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم .

فالمسئولية الملقاه على عاتق الدعاة كبيرة وشـــاقة – لا تقـــل أهمية عنه فى فجر الإسلام ، وعصره الأول – خاصة فـــى هـــذا الجو الملئ بالأفكار المسمومة ، والأمراض الإجتماعية الخطيرة .

وحيث إن النبوة والرسالة قد توقفت عند النبى ﷺ الذى خلص البشرية من ظلمات الجهل والشرك وهداهم إلى نور العلم والإيمـــان – فلا بد من التواصل والإستمرارية فى الدعوة إلى الله ولا بد مـــن جيل جديد ، يرث هذه التركة العظيمة ، ويتحمل المسئولية الكبرى.

ودعاة الإسلام فى كل عصر وجيل ، هم خلفاء رسـول الله ﷺ وورثته ، وهم أولى الناس بولاية النبـــى ﷺ ، ويحملـــون عـــبء الـــدعوة ويعلمـــون الناس الولاء للنـــبى ﷺ والإنتماء لدينـــه .

قال تعالى: ﴿ النبـــى أولـــى بـــالمؤمنين مـــن أنفســـهم ﴾ [1] .
ومن مهامهم سد كل الثغرات وأنواع الخلل .

يقول الدكتور يوسف القرضاوى :

" إن المشتغلين بالتربية والتعليم يقولون بعد دراســـة وخـــبرة ومعاناة " إن المعلم هو العمود الفقرى فى عملية التربيـــة ، وهـــو الذى ينفخ فيها الروح ، ويجرى فى عروقها دم الحياة ، مع أن فـــى مجال التعليم والتربية عوامل شتى ، ومؤثرات أخرى كثيرة ، ومن المنهج إلى الكتاب ، إلى الإدارة ، إلى الجو المدرسى ، إلى التوجيه أو التفتيش ، وكلها تشارك فى التوجيه والتأثير بنســـب متفاوتـــه ، ولكن يظل المعلم هو العصب الحى للتعليم .

فماذا يقول المشتغلون بالدعوة والإرشاد فى شأن الداعية ومبلغ أثره ، وهو العامل الفذ الذى ينفرد بالتأثير والتوجيه فـــى عمليـــة الدعوة ؟ إذ لا يشاركه فى ذلك – عادة – منـــهج موضـــوع ، ولا كتاب مقرر ، ولا جو ، ولا إدارة ، ولا توجيه .

فالداعية وحده هو – فى غالب الأمر – الإدارة والتوجيـــه ، والمنهج والكتاب والمعلم ، وعليه وحده يقع عبء هذا كله .

وهذا يجعل العناية بتكوين الدعاة ، وإعدادهم الإعداد المتكامل، أمراً بالغ الأهمية ، وإلا أصيبت كل مشروعات الدعـــوة بالخيبـــة والإخفاق ، فى الداخل والخـــارج ، لأن شرطـــها الأول لم يتحقق

---

[1] سورة الأحزاب الآية ٦ .

وهو الداعية المهيأ لحمل الرسالة " [1] .

من أجل ذلك كانت الضرورة فى إعدادهم أمرا مهما ، ليكونوا بحق أئمة الناس وقادتهم ، وليغرسوا فى قلوب الناس شجرة الإيمان والهدى فتثمر عملاً صالحاً ، وسلوكاً مستقيماً .

ولقد رسم الله تعالى طريق الإعداد للدعاة . وأمرهم أن يتعلموا من رسوله ﷺ . قال جل ذكره : ﴿ **لقد كان لكم فـــى رســـول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ [2]

وأكد الله تعالى هذه المهمه على لسان خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ ﴿ **قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنـــى وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ [3] .

وعلى الدعاة اتباع سيرة الرسول ﷺ ليمتثلوا به . فمن خـلال تعرض الرسول ﷺ لأذى المشركين وأعـــداء الإسـلام لا بـد أن يعرف الدعاة أنهم معرضون دائماً لأذى الأعداء ، فتلـك سـنة الله تعالى فى الصراع بين الحق والباطل فى كل العصـــور .. ولكـن الحق ظاهر والباطل زاهق ، وأن الله معين دعاتــه علـــى هـؤلاء الأعداء ، إذا نصروا الله باتباع أمره واجتنـــاب مـا نـهى عنـه لينصرهم الله ويثبت أقدامهم فى كل معركة يخوضونها ، فهذه سـنة

---

[1] ثقافة الداعية ص ٤ الطبعة الثامنة سنة ١٩٨٦ - مكتبة وهبه .

[2] سورة الأحزاب الآية ٢١ .

[3] سورة يوسف الآية ١٠٨ .

الله تعالى فى نصر المؤمنين عندما يدهمهم خطر ، كما يفهم ذلـــك من قوله تعالى : ﴿ **ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينـــا ننج المؤمنين** ﴾[1] ، ومن قوله تعالى :﴿**فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾[2] .

ومن الواجب مراعاة الآتى فيمن يؤهلون ليكونوا دعاة :

١) التخلق بالأخلاق الإسلامية التى يدعو الناس إليـــها ، لأنـــها إذا خرجت من قلب منفعل بها ، وعبرً عنها لسان صادق الدعـــوة فيها تأثر بكلامه القلوب ، وانفعل بصدق حديثه النفوس ، بعكس ما لو عرى عن هذه الأخلاق ، وجاء يدعو الناس إليها ، فـــإن دعوته – مهما كان فصيح اللسان ، بليغ العبارات – لا تعـــدو أن تكون نفخا فى رماد ، وبذا يزول أثرها ، ولا يدوم نفعها .

يقول مالك بن دينار : " إن العالم إذا لم يعمـــل بعلمـــه زلّـــت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا " [3] .

وسئل الحسن البصرى – رحمه الله - : ما بالنا نعظ النـــاس فنبكيهم ، وأنت تعظ الناس فتبكى ؟

فقال : ليست النائحة كالثكلى [4].

---

[1] سورة يونس الآية ١٠٣ .

[2] سورة الروم الآية ٤٧ .

[3] إحياء علوم الدين . للإمام الغزالى ١٠٧/١ – طبعة دار الشعب .

[4] هداية المرشدين تأليف على محفوظ ص ١٤٥ – طبعة دار الإعتصام .

٢)**الصلة بالله تعالى** : إن الداعى إلى الله يهدف إلى تعريف الناس بربهم ، وتوثيق علاقتهم به ، فكيف يتأتى له ذلك إذا كان جاهلاً بالله ، واهى الصلة به .

إن فاقد الشئ لا يعطيه ، ومن لا يملك نصابا لا يزكى .

ولا يتأتى للمرء أن يصحبه توفيق الله ونصرته ما لم يكن على صلة وثيقة بربه ، وعلاقة وطيدة بمولاه .

يقول قتادة :

" من يتق الله يكن معه ، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التى لا تغلب والحارث الذى لا ينام ، والهادى الذى لا يضل " [١] .

٣)**التحلى بالصبر** : إن الدعاة إلى الله ليس لهم أن يستعجلوا أمر المدعويين ، بل الصبر عليهم هو الأصل ، وللدعاة فى ذلك أسوة حسنة فى خاتم النبيين ﷺ ، فقد صبر على عداوة المدعويين وعنادهم ودعا لهم بالهداية وطلب من الله تعالى أن إذا لم يهتد هؤلاء ، فليكن من أصلابهم مؤمنون مهتدون .

وليعلم أولئك الدعاة بأن رسول الله ﷺ صبر على من هم اسوأ من أولئك وتحمل منهم ما لم يتحمله أحد ، وما ضاق بهم ولا بشرهم ومكرهم .

فعلى الداعية أن يواجه الناس بوجه بسام وصدر منشرح ، وأن يخاطب كل فئة بما يصلح من شأنها ، وأن يصبر على اقناع

---

[١] جامع العلوم والحكم ص ٢٢٨ ابن رجب الحنبلى – طبعة مكتبة الدعوة الإسلامية.

الخصوم ومناقشة أمورهم فى خلال تعاليم الإسلام .

أيضاً على الداعية أن يتيقن بمحبة الله تعالى لــه ، وبنصــره وتأييده إياه كلما ضاقت عليه الأمور ، أو تكاثر من حوله الأعداء ، عندئذ يجئ أمر الله بسبب مَّا فينجيه مما يعانى ، ويصــرف عنــه الأعداء بما شاء .﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكــرى للبشر** ﴾ [١] .

تلك سنة الله فى الدعاة إليه من أنبياء ومرسلين ودعاة صالحين وسنة الله لا تتخلف أبداً وآيات القرآن الكريم الدالة على ذلك كثـيرة نذكر منها ما يلى :-

قال الله تعالى : ﴿ **ونوحاً إذ نادى من قبــل فاســتجبنا لــه فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبــوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين** ﴾[٢] .

وقال جل وعلا : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لــن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنـت من الظالمين فاستجبنا له ونجينـــاه مــن الغــم وكذلــك ننجــى المؤمنين** ﴾ [٣] .

وقـــال سبــحانه فى قصــــة إبراهـيم عليه السلام مع قومه

---

[١] سورة المدثر الآية ٣١ .

[٢] سورة الأنبياء الآيتان ٧٦، ٧٧ .

[٣] سورة الأنبياء الآيتان ٨٧،٨٨ .

﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾[1] .

أما إذا تأخر النصر ، فذلك إبتلاء للمؤمنين وإمهال للظالمين ، حتى إذا أخذهم لم يفلت منهم أحداً ، وتلك سنة الله فى الصراع بين الحق والباطل .

وعلى الدعاة التدبر فى سير أسلافهم من الأنبياء والمرسلين والدعاة الذين مستهم البأساء والضراء ، وصبروا واحتملوا فى سبيل الله ما احتملوا ، حتى توهم بعض الدعاة منهم أن نصر الله قد تأخر عليهم وانهم قد بلغ بهم الأمر غايته ، كما صورت ذلك الآية الكريمة : **﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين وآمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾**[2] .

وأن المحنة والبلاء لا يجوز أن تصرف المؤمنين عن موكبهم ولا الدعاة عن عملهم وإصرارهم على المضى فيه ، وإنما يحتسبون عند الله أجرهم ويؤدون الذى عليهم مهما أحيط بهم .

٤) **الإخلاص** : إن الإخلاص هو الحماية القوية للإنسان من الوقوع

---

(١) سورة الأنبياء الآيات من ٦٨ – ٧١ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٤ .

فى حبائل الشيطان .

قال تعالى : ﴿ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منـــهم المخلصين** ﴾ [١] .

كما أن قبول العمل عند الله تعالى منــوط بــالإخلاص فيــه ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمــل عمــلاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ [٢] .

وعن الفضيل بن عياض أنه قال فى قوله تعالى ﴿**ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾[٣] قال : أخلصه وأصوبه .

فإذا كان الإخلاص مطلباً شرعياً من جميع المؤمنين ، وشرطاً من شروط قبول الله للعمل فإن الدعاة إلى الله تعالى أحوج النـــاس إلى هذا الخلق من غيرهم ، لكونهم اختصوا بحمل أمانـــة العلـم ، وشرفوا بالإنتساب إلى القرآن .

أورد الإمام القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **يؤتى الحكمـة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثـــيراً ..** ﴾ [٤] أورد قول بعض الحكماء :" من أعطى العلم والقرآن ينبغـــى أن يعــرف نفسه ، ولا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم ؛ فإنما أعطى أفضـــل

---

[١] سورة ص الآيتان ٨٢، ٨٣ .

[٢] سورة الكهف الآية ١١٠ .

[٣] سورة الملك الآية ٢٦٩ .

[٤] سورة البقرة الآية ٧٧ .

ماأعطى أصحاب الدنيا ؛ لأن الله تعالى سمى الدنيا متاعـــا قليـلاً فقال: ﴿ **قل متاع الدنيا قليل** ﴾ [1] وسمى العلم والقـــرآن خـيراً كثيراً" [2] .

٥) **التواضع** : وللتواضع دور بارز فى هذا المجال ، فبقدر ما يلين الداعية جانبه يألفه الناس ، ويحبون دعوته ، وبذا يكثر أتبـــاع الدعوة ، وينال الداعية من الله تعالى عظيم الأجر ، فإن الـــدال على الخير كفاعله .

أما إن تعالى الداعية وتكبر على من حوله فإن النـــاس تنفـر منه، وتنفض الجموع من حوله ، وصدق الله العظيـم إذ يقـول – مشيراً إلى هذا المعنى – ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لـــهم ، ولـو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك** ﴾ [3] .

كما أن التواضع يرفع من قدر صاحبه عند الله ، فيكون بذلـك أهلاً لمعونة الله وتوفيقه له ، فى حين أن التكبر يعـرض صاحبـه لمقت الله وسخطه ، فلا يُنظر له _ بمقتضى ذلك – أن يعينـه الله ، أو يسدد على طريق الحق خطاه .

وأىُّ خسارة تعدل خسارة الداعية لنصرة الله له ؟ وأى شـــئ يمكن تصور نجاح الداعية فيه إذا كان الله يخذله ويمقته ؟

---

(١) سورة النساء الآية ٧٧ .

(٢) تفسير القرطبى ٣/٢١٤ طبعة دار الكتب العلمية .

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

من أجل هذا – وغيره – أكد الدعاة إلى الله تعالى على أهمية التواضع ، وضرورة حرص المسلمين عليه فضلاً عن الدعاة .

٦) **أن يحيى قلبه بذكر الله تعالى** ، وأن يستحضر هيبته وعظمته وأن يداوم على استغفاره لربه ، ويتدبر قوله الله تعالى : **﴿ فاذكرونى أذكركم .. ﴾** [١] أى فاذكرونى فى أقوالكم وأعمالكم أذكركم فى العون والتوفيق فى الدنيا والآخرة .

فالذكر خير معين لهم على المضى فى طريقهم والدعوة إلى الله .

٧) وعلى الدعاة أن يبصروا المدعوين بأن من قصر فى حق الله تعالى ثم تاب وأناب فإن الله تعالى يغفر له ويصفح عنه فهو الذى يقبل التوبة عن عباده وهو التواب الرحيم .

أقول ذلك حتى لا يتسرب اليأس إلى نفس مقصر أو متجاوز ، إذ من واجب الدعاة بعث الأمل فى النفوس وتجديد الثقة فى عفو الله ومغفرته .

روى البخارى [٢] بسنده عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ " يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا " .

---

[١] سورة البقرة آية ١٥٢ .

[٢] فى صحيحه . كتاب العلم . باب ما كان النبى ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كى لا ينفروا ١/١٧٢ الفتح

وأخيراً : أحمد الله تعالى الذى بفضله تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

وأدعو الله تبارك وتعالى أن ينفع بهذا الكتاب كل من يريد أن يعد نفسه لتحمل المسئولية ؛ فالكل راع ومسئول عن رعيته قال رسول الله ﷺ : ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " [1] .

كما أسأل الله أن يهيئ للإسلام من يقوم على أمره بما يحبه ويرضاه وأسأله أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما يعلمنا .

والحمد لله رب العالمين

القاهرة ١٥ ربيع الآخر من سنة ١٤٢٠هـ

الموافق ٢٨ من يوليه من سنة ١٩٩٩م

---

[1] أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الإمارة . باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر ٢١٣/١٢ شرح النووى .

أهم مراجع البحث

القرآن الكريم .

١ - الأذكار للإمام النووى / دار الشرق العربى - بيروت - لبنان

٢ - إحياء علوم الدين : للإمام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى - دار الريان للتراث - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م .

٣ - الإسلام والعلم : للدكتور عبد الحليم محمود . بحث لمؤتمر مجمع البحوث الإسلامية فبراير سنة ١٩٧٠ م .

٤ - البداية والنهاية : لابن كثير .

٥ - البحر المحيط : لأبى حيان . مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٩ هـ .

٦ - البشارة بنبى الإسلام فى التوارة والإنجيل . رسالة دكتوراه مطبوعة د/ أحمد حجازى السقا . دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٩ه - ١٩٩٠م .

٧ - تاريخ العالم الإسلامى : للدكتور محمود زيادة .

٨ - الترغيب والترهيب : للمنذرى . دار الفكر . الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ .

٩ - التفسير الكبير : للإمام الفخر الرازى - الطبعة الثالثة - دار إحياء التراث العربى .

١٠ - تفسير المراغى : للشيخ أحمد مصطفى المراغى . دار إحياء التراث العربى . بيروت .

١١ - تفهيم القرآن لأبى الأعلى المودودى . مكتبة جماعة إسلامى. الهند .

١٢ - ثقافة الداعية . الطبعة الثامنة سنة ١٩٨٦م مكتبة وهبه .

١٣ - جامع البيان فى تفسير القرآن : لأبـــى جعفـــر بـــن جريـــر الطبرى . دار الحديث بالقاهرة ١٤٠٧ هـــ .

١٤ - جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلـــى . مكتبـــة الدعـــوة الإسلامية .

١٥ - الحكم العطائية . شرح وتحقيق مهندس / محمود عبد الوهـــاب. طبعة دار المدينة المنورة . القاهرة .

١٦ - حياة محمد . محمد حسنين هيكل . الطبعة الثـــالثة عشـــر . مكتبة النهضة المصرية .

١٧ - خاتم النبيين : للإمام محمد أبو زهرة . دار الفكر العربى .

١٨ - الخصائص الكبرى للسيوطى . دار الكتب العلمية . بيروت .

١٩ - دلائل النبوة : للبيهقى . تقديم وتحقيق عبد الرحمـــن محمـــد عثمان . الطبعة الأولى ١٣٨٩هـــ ١٩٦٩م . دار النصـــر للطباعة . القاهرة .

٢٠ - دلائل النبوة للدكتور عبد الحليم محمود .

٢١ - ذكر الله للدكتور الحسينى أبو فرحة .

٢٢ - الرحيق المختوم : للشيخ صفي الرحمن المباركفوري . الجامعة السلفية . الهند . دار الرحمة للنشر والتوزيع . ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .
٢٣ - الرسول ﷺ : سعيد حوى . دار السلام للطباعة والنشر . الطبعة الثانية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م .
٢٤ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : للألوسي . دار إحياء التراث العربي - بيروت . الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ .
٢٥ - الروض الأنف للسهيلي .
٢٦ - سنن ابن ماجه : القاهرة . دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٢ م
٢٧ - سنن أبي داود : دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م .
٢٨ - سنن الترمذي : القاهرة . المكتبة الإسلامية ١٩٦٢ م .
٢٩ - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة : للدكتور محمد أبو شهبة . دار الطباعة المحمدية ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م .
٣٠ - السيرة النبوية : لابن جرير الطبري - تحقيق جمال بدران . دار الكتب المصرية اللبنانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .
٣١ - السيرة النبوية : لابن هشام . دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان .
٣٢ - السيرة النبوية : للإمام محمد أبو زهرة . دار الفكر العربي.
٣٣ - شرح السنة للبغوي .

٣٤ - شرح النووى على صحيح مسلم . دار إحياء التراث العربى. بيروت . لبنان .
٣٥ - الشفا فى حقوق المصطفى : للقاضى عياض . الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م . دار الفيحاء . عمان .
٣٦ - صحيح البخارى : دار إحياء التراث العربى ١٩٥٨م .
٣٧ - صحيح مسلم : دار إحياء التراث العربى ١٩٥٦ م .
٣٨ - الطبقات الكبرى : لابن سعد .
٣٩ - العبادة فى الإسلام . د. يوسف القرضاوى . الطبعة السادسة.مؤسسة الرسالة - بيروت . لبنان سنة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .
٤٠ - عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير : لابن سيد الناس . تحقيق لجنة إحياء التراث العربى . دار الآفاق الجديدة - بيروت . لبنان .
٤١ - فتح البارى : لابن حجر . مطبعة مصطفى البابى الحلبى. الطبعة الأولى .
٤٢ - فتح القدير : للشوكانى : دار إحياء التراث العربى . بيروت.
٤٣ - الفتوحات الربانية : للدكتور الحسينى أبو فرحة . الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م . دار أبو المجد للطباعة .
٤٤ - فقه السيرة : للشيخ محمد الغزالى . الطبعة السابعة ١٩٧٦م. دار الكتب الحديثة .

٤٥ - فى ظلال القرآن : للشيخ سيد قطب .

٤٦ - قصص الأنبياء . مبحث بشارة عيسى بالنبى محمد ﷺ كما ورد فى كتاب اليهود والنصارى - تأليف البروفسور : عبد الأحد داود قسيس أورميا فى إيران سابقا . نهضة مصر للطباعة والنشر . ترجمة : محمد فاروق الزين .

٤٧ - القول المبين فى سيرة سيد المرسلين : الدكتور : محمد الطيب النجار . الأمل للطباعة والنشر .

٤٩ - لسان العرب : لابن منظور . دار صادر . بيروت

٥٠ - ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين : لأبى الحسن على الحسينى الندوى - الطبعة السادسة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م . دار الكتاب العربى - بيروت

٥١ - مسند الأمام أحمد بن حنبل . القاهرة ١٣١٣ هـ

٥٢ - منهج القران فى إعداد النبى ﷺ لتحمل مسئولية الرسالة كما تصورها سورة المرمل تأليف : د/ سمير عبد العرير شليوه - الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م - الناشر : مكتبة الأزهر .

٥٣ - نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين - للشيخ محمد الخضرى . دار إحياء الكتب العربية .

٥٤ - هداية الرشدين . تأليف على محفوظ . طبعة دار الإعتصام.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــوع	الصفحة

رقم الإيداع ١٧٢٧٣ /٩٩
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977-5819-59-8



دار جاد للطباعة
دار السلام
ت : ٣٢٠٩٩١٤ محمول : ٠١٠/ ٥١٠٦٩٥٠